رواية

مواسير سكلير

ترجمة: أماني لازار

تحرير: محمد سالم

ماكس والقطط

ماكس والقطط

مواسير سكلير

رواية

ترجمة
أماني لازار

تحرير
محمد سالم

2017

ماكس والقطط

مواسير سكلير

ماكس والقطط/ رواية
مواسير سكلير

ترجمتها عن الإنجليزية: أماني لازار
تحرير: محمد سالم
لوحة الغلاف والإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- نوفمبر 2017
978 - 99966 - 1 - 796 - 6 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2017/979

Novel by Moacyr Scliar
Max and the cats

Translated from Portuguese by Eloah F. Giacomclli
Copyright © 2003 by Plume Books • New York
First published in Portuguese in 1981 as **(Max e os felinos) by L & PM Editores Ltda., Brazil.**
Translated from English by Amani Lazar.

حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw
العنوان: غرب أبو فطيرة الحرفية- قطعة-1 شارع 12 -مبنى 16

© Alkhan Translation & Publishing
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

تمت الطباعة في شركة مطابع بلومز
[redacted]

أنا، أخاف؟!

النمر لا يخشى أحدًا...

النمر الخفيّ.

روحي.

فرانسيسكو ماسياس نغيما
ديكتاتور غينيا الاستوائية المخلوع.

الفهرس

النمر فوق الخزانة 9
الجغور في الزورق 49
الكوجَر عند أعلى التلة. 97

النمر فوق الخزانة

لطالما كان ماكس، بشكل أو بآخر، مغرمًا بالسِّنوريات.

ولد ماكس في برلين عام 1912، ونشأ وسط الفراء إذ كان والده تاجر فراء. أحبَّ فراء الفهد على وجه الخصوص، لكنه للأسف كان سلعة نادرة في متجر والده، وهو عبارة عن مؤسَّسة تجارية صغيرة تقع في حي سيء السُّمعة إلى حدٍّ ما في برلين. وجدت أغلب السِّلع طريقها إلى متجر والده بعد رفضها: ثعالب من سلالات مشكوكٍ فيها، قنادس مِسكيَّة ميتة عثر عليها مصادفة على الثَّلج، سِمَّورات خزّ نبذها تجار فراء آخرون. وحتى الأرانب كان هناك مجال لبيعها إلى المتبضِّعين الأكثر سذاجةً، لكن لم يكن مسموحًا التطرُّق إلى هذا الموضوع في البيت على الإطلاق. سواء كإنسان أو كتاجر، لم يكن هانز شميت من اللباقة في شيء. ممتلئ الجسم مثل دب، يندفع بقوة كبيرة وهو يمتدح مزايا بضائعه: يصرخ، يتضرج وجهه حمرةً، يرشُّ وجوه الزبائن بالبصاق. وفي البيت أثناء تناوله للحساء الذي يرشفه بضوضاء، يتفاخر أمام زوجته وابنه بعدد السُّذج الكبير الذين خدعهم في حياته. يصغي ماكس ووالدته إليه بصمتٍ. شخصية إرنا شميت على كفَّي نقيض من شخصية زوجها، فهي امرأة

خجولة، قصيرة، حسَّاسة، وليست معدومة الثَّقافة كليًا. عندما كانت في سن المراهقة طمحت أن تصبح خطيبةً، والآن في حمأة الأحلام المتشابكة ليلًا، تلقي قصائد لغوته وشيلر بصوت مرتفع. يهزُّها زوجها بخشونة ليوقظها ويصيح قائلًا: «لا أستطيع النَّوم بسبب حماقاتك هذه». لم تتصدَّ إرنا يومًا لوحشية زوجها، مع ذلك، تتوقف أحيانًا وهي تروي قصة لابنها وتعانقه فجأة، مجهشةً بالبكاء.

هذا كلُّه أحزن ماكس الذي ورث عن أمه حساسية تكاد تكون مَرضيَّة. كان الفراء مصدرًا لكل من الكرْب والمسرَّة. اعتاد منذ طفولته أن ينشد ملاذًا في المخزن الذي لا يعدو أن يكون مكانًا ضيقًا مقفلًا يتسرَّب إليه بعض الهواء والضوء من نافذة صغيرة مكسوَّة بقضبان حديدية سميكة. شعر ماكس بالسَّعادة في ذلك المكان وأحبَّ أن يدفن وجهه في الفراء، لاسيما إذا كان فراء السَّنانير (أصبحت هذه الحقيقة لاحقًا مثارًا للتندّر). كلما فكَّر أن الفراء الذي يمسَّه كان يكسو جسد حيوان رشيق يطارد الغزلان في إفريقيا -الغنيمة المكتسبة من الحيوان لا أكثر- سرت في ماكس قشعريرة متأثرًا بعاطفة غريبة. نعم. بأيَّة حال شعر ماكس كأنَّ الحيوان

موجود هناك بالفعل على قيد الحياة.

وبالطبع كان هناك النِّمر الذي حمل المتجر اسمه: النمر البنغالي. أردى هانز شميت بنفسه الحيوان قتيلًا، خلال رحلة قام بها إلى الهند بصحبة نادي الصَّيادين. بالتأكيد أثار وصف هذه المغامرة الفتى ماكس، لكنه ابتلاه غالبًا بقلقٍ لا يكاد يُحتمل. قال والده بكلمات فظَّة هزليَّة إن الهند مكان قذر، يعجُّ بمواطنين مهزولين كالهياكل العظمية دعوا بالمنبوذين. الجانب الوحيد الجدير بالاهتمام في الرحلة، بقدر ما يتعلق الأمر بهانز شميت، هو مطاردة النمر التي يقصُّ حكايتها بفيض من التفاصيل. متحدثًا عن الأدغال الكثيفة وعن ضوضاء الليل الغامضة وعن الصَّيادين الذين جثموا في ترقُّب مشدود على منصَّات منصوبة في الأشجار بانتظار النمر. وعلى حين غرة، يظهر الحيوان في قطعة الأرض الفارغة، ثم التَّسديدة القاتلة -تسديدته، تسديدة هانز شميت- وها هو هناك الآن، محنَّط وموضوع على الخزانة. في واقع الأمر، قام المحنِّط بعمل رائع. عمليًا كان الجلد سليمًا وثقب الرصاصة لا يكاد يُرى. أخرجت الأحشاء من فم الحيوان الضخم، ووضع مكانها

موادًا للحشو ذات جودة عالية. كانت العينان متقنتين، على كونهما مصنوعتان من الزجاج. تومضان ببريق حاد عندما يميل الضوء في زاوية معينة، بريق لم يره ماكس في عيون نمور حديقة الحيوان يومًا، لكن هناك، كانت تلك الحيوانات هرمة ومستسلمة للأسر.

لطالما فزع ماكس من النمر منذ نعومة أظفاره. لدرجة أنَّ هذا الخوف كان سببًا لكوابيسه. يستيقظ صارخًا في الليل، ما زاد من قنوط أمه التي من داء الرَّبو علاوة على كل مشاكلها، ولم تكن أهوال الليل غريبة عليها إطلاقًا. اعتاد هانز شميت أن يهزأ من مخاوف ابنه، منتهزًا كلَّ فرصة ليعيّره قائلًا: «جبان، هذا ما أنت عليه؛ جبان». أرسل الفتى ذات مساء، بعد العشاء، إلى المتجر ليجلب صحيفة ربما نسيها هناك. رفض ماكس، وقد كان يبلغ آنذاك تسع سنوات من العمر، محتجًا بالبرد القارس والظلّمة، لكن والده طلب منه ساخطًا أن يسرع ويكفَّ عن أن يكون رعديدًا. أجهشت إرنا بالبكاء متضرِّعة لزوجها ألا يجبر الطفل على الخروج: «بحق السَّماء، لا تفعل به هذا». ماكس الذي كان جالسًا هناك يراقب جدال والديه، نهض فجأة، ودون أن ينبس

بكلمة، اختطف معطفه وغادر متجهًا إلى المتجر.

أسرع ماكس في الشَّوارع المهجورة. وعندما انعطف عند مفترق طرق، لاقى حشدًا كبيرًا من المتظاهرين وسط الشارع، يحملون المشاعل ويرددون الأناشيد. كانت مظاهرة للاشتراكيين. تقدَّم السَّائرون ببطء وأومأ أحدهم إلى ماكس كي ينضمَّ إليهم.

ثم سُمعت على حين غرَّة قعقعة حوافر: رجال شرطة يمتطون ظهور الخيل، سيوفهم سليلة، شنُّوا هجومًا على المتظاهرين. رأى ماكس، في العراك الصَّاخب، رجلًا صريعًا تحطَّمت جمجمته بضربة سيف. هرع مرعوبًا إلى متجر والده الذي كان في الجوار. يرتعد بشدَّة حتى أنَّه وجد صعوبة كبيرة في فتح الباب، دخل أخيرًا واختفى خلف تمثال لعرض الأزياء، وبقي في الظلمة، أسنانه تصطك. همد الصُّراخ في الخارج تدريجيًا إلى أن ران الصمت على الشارع.

حدَّق ماكس بثبات نحو النِّمر فوق خزانة الملابس، تلتمع عيناه ببريق مشؤوم كلما أضاءت مصابيح سيارة عابرة

داخل المتجر. كان النُّضد الذي وضعت عليه الصحيفة يقف بين الفتى والحيوان. الصَّحيفة التي لم يكن في وسع ماكس الوصول إليها، أقلَّه ليس وهو مشلول بخوف لم يختبر له مثيلًا من قبل أبدًا. خوفٌ مهين، ممزوج بثورة خفيَّة ومكظومة. لماذا أراد والده هذه الصَّحيفة بالذَّات؟ هل تشتمل على أخبار عظيمة الشَّأن ينبغي عليه قراءتها؟ لماذا كان فظًّا للغاية مع ابنه الوحيد؟ وكانت الدُّموع تنهمر على خديه.

ثم خطرت له فكرة: ربما لا يزال الكشك القريب مفتوحًا، ماذا لو اشترى منه نسخة من الصحيفة؟ لكن الفكرة ستبوء بالفشل لأن هانز شميت عندما يفتح المتجر في اليوم التالي، سوف يجد الصحيفة موضوعة على النُّضد، ولن يكون في وسع ماكس احتمال تعليقات والده الساخرة. لا. عليه أن يتغلب على خوفه ويواجه النمر ويختطف الصحيفة عن النُّضد ثم يخرج من هناك، ويذهب إلى البيت كما لو أن لا شيء خارجًا عن المألوف قد حدث: هاكَ أبي، هل تريد شيئًا آخر؟ لكن ساقا ماكس لا تطيعانه، وهو متشبث بالتمثال وقد بدا كأنه مزروع في مكانه.

بدأ الهاتف يرنّ: على الأرجح والده منزعجًا من تأخره (ماذا تفعل هناك بحق العالم؟ تشمُّ رائحة الفراء، أنا واثق، أيها الجبان). ظلَّ ماكس يتمتم فزعًا: «توقَّف عن الرنين، توقف، توقف»، لكن الهاتف رنَّ بإصرار، فما كان منه إلا أن دفع التمثال جانبًا وانطلق مسرعًا نحو الصحيفة، لكنه تعثَّر وارتطم بالنُّضد. تحطَّم الزجاج وانجرحت يده بشظاياه. صرخ من شدَّة الألم، لكن مع ذلك التقط الصَّحيفة وهو ينزف بغزارة وعاد أدراجه إلى البيت. عندما رأته والدته بدأت تصرخ بطريقة هستيرية. قال ماكس محاولًا تهدئتها: «إنَّه لا شيء». ثم ناول الصحيفة المدمَّاة لوالده. كان الوجه الحائر لذلك الرَّجل آخر ما رآه ماكس قبل أن يفقد الوعي.

لا، ماكس لم يُحبّ المتجر، ميدان والده والنمر البنغالي. لكنه أحبَّ المخزن. اعتاد على مرِّ السنوات أن ينشُد فيه ملاذًا كلَّما أراد أن يقرأ، وهذا ما استغربه هانز شميت، على ذلك، مازح ابنه في هذه المسألة -فهو أبٌ في نهاية الأمر. قرأ ماكس في المخزن كتب أندرسن والأخوين غريم، وغوته وشيلر نزولًا عند رغبة والدته الملحَّة. لكنَّه استمتع حقًا بقراءة قصص الرَّحلات، بدءًا من تلك التي

تضمنتها مجموعة تحمل عنوان «مغامرات بيتر الصغير». عرف ماكس إفريقيا، إذا جاز القول، بفضل تلك الكتب المصوَّرة على نحو فاتنَ (الصغير بيتر يذهب إلى إفريقيا)، اليابان (الصغير بيتر يذهب إلى اليابان)، ومُعرِضًا عن الهند التي تكفَّل والده بتشويه صورتها كما يجب، وصل إلى البرازيل (الصغير بيتر... برازيلي)، بلد كان له سحر خاص عليه. الآن، في الصفحة الثالثة أو الرابعة، كان يوجد صورة لبيتر الصغير في وسط الأدغال، ينظر مذهولًا، لكن دون خوف، إلى سنَّور ضخم (جغوَر، بحسب النَّص) التهم للتو واحدًا من السُّكان الأصليين، إحدى قدميه لا تزال تتدلى من زاوية فك الحيوان الضخم.

بسبب هذه الوليمة، أو من جرَّائها تمامًا، بدا النمر سَمحًا، إن لم يكن دمث الخلق -وهذا كان على كفَّي نقيض مع النمر البنغالي. لهذا السَّبب امتلك ماكس انطباعًا عن ضرورة أن يكون البرازيل بلدًا سعيدًا ومبهجًا. كتب في يومياته: ذات يوم سأزور هذا المكان السَّاحر. كان مراهقًا دون أصدقاء، وعادته في أن ينشد ملاذًا في المخزن عزَّزت رغبته بالعزلة. في المخزن دخَّن سيجارته الأولى، هناك

استمنى، ومارس الجنس لأول مرة.

***

عملت هذه المرأة، هذه الـ (فريدا)، في المتجر وكانت العاملة الوحيدة فيه، فبالنَّظر إلى حجم العمل المتواضع لم يكن هناك حاجة إلى المزيد. كانت فتاة قصيرة القامة، ممتلئة إلى حد ما، مرحة وثرثارة. ابنة عائلة من الفلاحين في الجنوب، وأبعد ما تكون من التهذيب. تروي لماكس نكاتًا بذيئة بلغة فظَّة، تغرق في الضَّحك عندما ترى الفتى وقد احمرَّ خجلًا.

طلب هانز شميت من فريدا، لاضطراره التغيُّب ذات أصيل، الاعتناء بالمتجر أثناء غيابه.

قالت: «يمكنك الذَّهاب وأنت مطمئن، سيدي».

لكن ما إن غادر حتى أقفلت الباب الرَّئيس وهرعت إلى المخزن، حيث كان ماكس مستلقيًا على الفراء يقرأ كعادته.

بدأت فريدا تقيس معاطف مختلفة، تستعرض نفسها

جيئة وذهابًا.

«ما رأيك، ماكس؟ ألا يجعلني أبدو مثل سيدة؟». ابتسمت وغمزته.

نظر ماكس شزرًا إليها مشوشًا. أدارت المذياع. غمرت نغمات موسيقى التَّانغو غرفة المخزن.

«تعال، لنرقص».

تمتم ماكس قائلًا إنه لا يجيد الرقص، لكنها جذبته نحوها. وانطلقا يرقصان، خدًا لخد. ماكس يزداد إثارة وهو يشعر بنعومة بشرتها على بشرته، أكثر فأكثر. أخيرًا، ارتميا كلاهما على الفراء. وقالت له هامسة: «دع الأمر لي».

كانت خبيرة، جرى كل شيء بنجاح دون مشاكل... كل شيء دون مشاكل.

لدى عودة هانز شميت، وجد فريدا تعمل خلف النُّضد، وكان ماكس في المخزن، لا يزال وجهه محتفظًا بحمرته، مختفيًا خلف كتاب. النمر البنغالي فوق الخزانة يحدّق نحو

ماكس بثبات، كالعادة. بأية حال، طرد هانز شميت أجيرته في اليوم التالي. هل شكَّ بشيء؟ ربَّما. أيًا كان السبب، منع الفتاة من أن تطأ قدماها أرض المتجر ثانية قط، وحذَّر ماكس أن عليه منذ الآن الابتعاد عنها.

لكن بالنِّسبة لماكس كان نسيان ذلك الأصيل في المخزن مستحيلًا... يستغرق دومًا في التداعيات ويحلم بالمرأة الشابة ويكتب لها رسائل مشبوبةً يمزقها من فوره، إلى أن ذهب أخيرًا، بعد أن ضاق ذرعه، لزيارتها في منزلها. استقبلته فريدا مبتسمة دون ضغينة كما لو أنَّ شيئًا لم يكن. سألته عن والده، المتجر، وعن النمر أيضًا. ثم تعانقا تملؤهما الرغبة ومارسا الحب على الأريكة في غرفة الجلوس الصغيرة. غافلين عن وجود عمتها وهي امرأة مسنة صمَّاء وعمياء تجلس في كرسي هزاز تدندن أغان تيرولية[1] قديمة. بعدئذ فيما كانا يسوِّيان نفسيهما، سألت فريدا بنبرة مفاجئة عمَّا إذا بيعَ المعطف المصنوع من فراء الثعلب ذاك في المخزن. قال ماكس إنه لم يُبع بعد.

(1) نسبة إلى مقاطعة تيرول النمساوية.

قالت وهي تنظر إليه بطريقة غريبة: «في هذه الحال، عندما تريدني في المرة القادمة، اجلب معك المعطف، أو لا تكلِّف نفسك عناء المجيء».

في وقت متأخر من تلك الليلة، أخذ ماكس مفتاح المتجر وذهب إلى هناك لسرقة المعطف، هذه المرَّة، لم يخفه النمر البنغالي على الإطلاق. كي لا يشك والده بأنه السَّارق؛ لوى ماكس قضبان النَّافذة الصَّغيرة بواسطة عتلة ثم نثر الفراء في أنحاء المتجر، وقذف النمر المحشو على الأرض في لفتة أخيرة لا تخلو من شعور محقَّق بالنِّقمة. غضب هانز شميت، ولو أن سرقة معطف واحد حيّرته. إلى الطاولة أثناء وجبة الغداء، شرع في إلقاء خطبة على زوجته وابنه، صاح قائلًا إنه لم يعد هناك شرف في ألمانيا بعد اليوم، وإن البلاد أصبحت ملجأ للّصوص واليساريين.

سارع ماكس تلك الليلة وأخذ معطف الفراء إلى فريدا التي ابتهجت قائلة:

«لقد فعلت هذا من أجلي، ماكس!»

قادته إلى غرفة نومها، كانت المضاجعة سريعة لكن محمومة. عندما انتهت، خرجت عارية من السَّرير، ارتدت المعطف، وبدأت تستعرض نفسها أمام المرآة ضاحكة. استثير ماكس، أراد أن يمارس الحب ثانية، لكن فجأة صدَّته متضايقة وقالت: «هذا يكفي! أنت تطلب الكثير لقاء معطف رثّ». شعر ماكس بأن خدَّيه يحترقان، دونما كلمة، ارتدى ثيابه وغادر.

بعد ثلاثة أيام، كان يسير يوم السَّبت مع والده وسط المدينة في طريقهما إلى البيت عندما توقف هانز شميت على حين غرَّة.

سأل ماكس: «ما الخطب؟»

لكن والده لم يجب. توقفي! صاح منطلقًا في جري متعجل وسط المارة المجفلين.

كان يطارد محمومًا فريدا التي تعرَّف إليها ماكس من معطف الفراء.

لم تدم المطاردة طويلًا: تعثَّرت المرأة، وتدحرجت على قارعة الطريق. رمى هانز شميت نفسه عليها وبدأ يصفعها صارخًا:

«أيتها الفاسقة! أيتها اللصة!».

دافعت فريدا عن نفسها بأفضل ما استطاعت. بدا ماكس مذعورًا، غير عارف إذا ما كان عليه أن يتدخل أم لا.

«ساعدني. ماكس! قل له إني لست من سرق المعطف. أخبره، ماكس!».

أسرع ماكس نحو أبيه محاولًا إبعاده عنها، ولم يفلح، كان الرجل حانقًا. في تلك الأثناء اقترب رجلا شرطة. فرَّقا ما بين هانز وفريدا، وبعد تحقيق قصير، اقتاداهما إلى مخفر الشرطة. تشتت الجمع الصَّغير الذي تجمهر بين الضَّحكات والتعليقات المازحة. عاد ماكس إلى البيت بعد أن أسقط في يده. في المساء عاد والده إلى البيت متأبطًا معطف الفراء، لكنه كان غاضباً. فبحسب ما قال، أُطلق سراح فريدا بسبب صِلاتها بالشرطة.

«لم يعد هناك شيء يدعى شرف في هذا البلد بعد الآن، ماكس. ألمانيا ضلَّت الطريق. هذا البلد متعفِّن، متعفن حتى الصَّميم».

تهاوى في كرسي وعلى وجهه ترتسم ملامح البؤس للمرة الأولى. أسِف ماكس لحاله. لم يكن هانز شميت المتسلِّط والوحشي الذي كان جالسًا هناك مطأطئ الرأس، مُحدَّب الكتفين، بل رجلًا خائفًا وذاهلًا، شخص يستحق الشفقة. تقدَّم ماكس منه ووضع يده على كتف والده. غير عارف بالضبط ما يقول، تطوَّع لمساعدة والده في المتجر: «أنت لا تحتاج إلى تلك المرأة. أبي، يمكنني أن أعمل عندك». رفع هانز شميت رأسه، وقد سكن عينيه بريق ساخر:

«أنت، فرَّاء؟ مستحيل. أنت مهذَّب للغاية لتعمل في التجارة».

مع ذلك، تراجع بعد برهة عما قاله وتابع بأسى: «لا، بني، لا أريد أن تجدَّ في طلب مثل هذه المهنة غير الموثوقة، إنها لا تناسب سوى اليهود، حقًا. إذا كنت أنا أمارس هذا

النوع من العمل، فهذا مرده فقط أني تركت المدرسة، ولا أتقن صنعة أخرى. لكن أنت، ماكس، سوف تذهب إلى الجامعة»، ثم قال وهو يهم بالنهوض: «أريدك أن تكون شخصًا ذا شأن. قائدًا، من النوع الذي تحتاجه ألمانيا».

كما تنبَّأ والده تمامًا، أصبح ماكس في الجامعة طالبًا قديرًا لافتًا ذو اهتمامات متعددة. عندما بدأ أولًا منهاجه الدراسي، فكَّر في تكريس نفسه للقانون والعلوم الإنسانية، لكن سرعان ما قاده ولعه بالأمور الغريبة إلى مجال العلوم الطبيعية.

بدأ يتردد على حصص البروفسور كونز المخبرية، الشَّهير بعمله البحثي على سيكولوجيا الحيوان، اختصاص حديث نسبيًا في ذلك الوقت. كان البروفسور يدرس حينها سلوك القطط في حالات تنطوي على الصراع. يضع الحيوانات في متاهات ضخمة، حيث يتم إخضاعها لمآزق مستمرة، من مثل الاختيار بين ممرين؛ أحدهما يفضي إلى طبق يحتوي على الحليب، والآخر إلى كلب بُلدغ شرس. يقول كونز إن مثل هذه التَّجارب ستحظى قريبًا بقيمة عملية كبيرة، وهو الرجل الذي أولى اهتمامًا بالغاً لتطور الأحداث

الاجتماعية السياسية.

في وقت لاحق، عندما باتت الحرب تشارف على نهايتها، كان البروفسور يوسِّع حقل تجاربه، ولهذا الغرض، استعمل الغجر على وجه الخصوص. في إحدى تلك التجارب، رمى من الطائرات شبانًا من الغجر، تتدلى مكبرات صوت من أعناقهم، أمِل البروفسور أن تزوده مواضيع دراسته أثناء نزولهم إلى حتفهم، بإقرار، أو إن لم يكن، بفكرة على الأقل -كصرخة، بدائية أم لا- تلقي الضَّوء على معنى الوجود الذي كان شاغل البروفسور الأكبر في تلك الأيام، فقد أراد أن يكتشف شيئًا عن الانتقال إلى الحياة الأبدية، مع اقتراب قوَّات التحالف من أبواب برلين في ذلك الوقت. أُحبطت آماله. ارتطم الغجر بالأرض محدثين صوتًا مكتومًا مسحوقين لكن دون أن يندَّ عنهم أدنى صوت. يصيخ كونز السَّمع عبر سماعات الرَّأس بتلهف منتظرًا أن يسمع ثمَّة إشارة منهم، لكن دون جدوى. أخيرًا، اضطر إلى نشر النتائج السَّلبية لدراسته، لكنَّه حاول أن يقلِّل من فشله بنظرية معقَّدة عن العلاقة بين ترحال الغجر ومسيرتهم الصامتة نحو الموت. صرّح البروفسور

في نهاية تقريره، إن الغجر يجولون الأرض في عرباتهم المغطَّاة باحثين عن الهلاك، لكنهم يفعلون ذلك بصمت، ما يشرح سبب فشل بحثه. اختتم بالرأي: لو أن مقاربة مختلفة ستتبع مستقبلًا مشاريع من هذه الطبيعة فعليها قذف كل من الغجر وعرباتهم المغطاة جميعًا في الهاوية).

ارتاب ماكس إلى حدٍّ ما إزاء مثل هذه التنظيرات، لكنه كان مولعًا بالبروفسور، وأحد أسباب ولعه به كان أن كونز سافر -مَثَلُهُ في هذا مَثل بيتر الصغير- إلى بلدان غريبة لا حصر لها، يجمع العينات لتجاربه. فهو على سبيل المثال، عاش في البرازيل عدَّة سنوات. لم يكلَّ ماكس يومًا من الإصغاء إلى وصف البروفسور الفاتن للمخلوقات التي تعيش في الأدغال الاستوائية: فراشات ضخمة، حيوان الكسلان الظَّريف، وفوق كل شيء، السَّنانير الغامضة. يتنهَّد قائلًا: «ذات يوم سأزور تلك الأماكن». كان عندئذٍ في التاسعة عشرة من عمره، شابٌّ نحيل متوسط القامة، ذو وجه بارز العظام وفي عينيه سيماء التَّحدي. كان طيِّب الخلق، وفي الواقع عدَّ نفسه متفائلًا، من هذه الناحية كان مختلفًا عن زميله في الدراسة وصديقه الحميم هارالد. كانا

من نفس العمر، لهما نفس المحيَّا. ويرتديان نفس النوع من النظارات ذات الإطار السِّلكي الذهبي. ويلتقيان في الرأي حول مختلف القضايا. كان هارالد، مع ذلك، اشتراكيًّا، مثل والده الذي شارك واقعًا في تلك المظاهرة التي رآها ماكس يوم ذهب إلى متجر الفراء ليجلب الصحيفة لوالده. مفلتًا من قبضة الموت بأعجوبة في تلك الليلة، أصبح والد هارالد صارمًا بشأن أمور سياسية، وصرامته انتقلت إلى ابنه. انضمَّ هارالد، المؤمن بالصِّراع الطَّبقي، إلى منظَّمة سريَّة. يقول إنَّ أنهارًا من الدم يجب أن تجري قبل أن نستطيع العبور من مملكة الضَّرورة إلى مملكة الحرية. وعلى هذه العبارات الطنَّانة، يعترف بأنه عاجز عن قتل ذبابة. أمِل أن ينفِّذ آخرون، أكثر شجاعة منه، هذه المهمَّة الصَّعبة، في حين سيبذل من ناحيته قصارى جهده لمساعدتهم -ربما بكتابة المقالات أو القصائد.

كان ماكس، بعد أن عاد لرؤية فريدا مجددًا، في أحسن حال. وفي اعتراف منها بجميل ماكس في محاولته لإنقاذها من ضربات أبيه، عاملته بلطف كبير. التقيا مرة أسبوعيًا فقط، ودومًا في السِّر، فهي متزوجة الآن من تاجر صغير. كان

الرجل الذي عرفه ماكس من الصور، نازيًا، يذهب ليلة كل خميس (وهو موعد لقاء فريدا وماكس) إلى اجتماع الحزب ليعود ثملًا ومبتهجًا، معلنًا أن النازية سوف تقهر العالم قريبًا. تسخر فريدا منه قائلة: «يريد أن يهيمن على العالم، لكن في السرير لم يكن يمتلك زمام قضيبه». ويسخر ماكس من النازي أيضًا، إذ وجده سخيفًا. مع ذلك كانت مخاوف هارالد في ازدياد: «هم الآن يظهرون مخالبهم يا ماكس، ولا أحد يهتم».

مسكين هارالد، ففي تلك الأيام بدا حزينًا، غير حليق، وهائج.

قالت فريدا عندما أفضى لها ماكس بهمِّه: «ما يحتاج إليه هو مضاجعة جيدة، هذه هي مشكلته»، ثم تابعت وفي عينيها نظرة شيطانية: «لماذا لا تجلبه إلى هنا؟»

شعر ماكس بالغيرة واستاء بعض الشيء من الاقتراح لكنه أقرَّ في النهاية أن ممارسة هارالد للجنس، الأمر الذي لم يجربه من قبل، مع امرأة -لا سيَّما امرأة لطيفة مُحبة مثل فريدا- ستعود عليه بالنَّفع الكثير. أقنع هارالد بزيارة فريدا،

لكن تبيَّن أن الأمر برمَّته فاشل، إذ اعترف الشَّاب باكيًا إنه عنين. تردَّى حال هارالد بعد هذه الحادثة حقًا. ذات ليلة اتصلت والدة هارالد بماكس لتطلب منه المجيء على وجه السرعة. عندما وصل وجد صديقه جاثمًا خلف كرسي، عاريًا، يصرخ قائلًا إن النازيين قادمين لاجتياح منزله.

بذل كلٌ من فريدا وماكس قصارى جهدهما لمساعدته؛ فريدا بالمال، وماكس بمحاولة ايجاد معالج نفسي له، ولم يكن هذا بالأمر السَّهل. لم يرغب أي طبيب نفسي بالمجازفة في إثارة استياء النازيين لأن والد هارالد كان معروفًا بتوجهه اليساري وهارالد شخصيًا مشاركًا والده في هذا الصِّيت. في هذه الأثناء، كان حال هارالد يزداد سوءًا يوميًا، رفض تناول الطعام، وقضى حاجته في السرير.

ذات يوم تلقى ماكس اتصالًا هاتفيًا مُفجعًا من فريدا: عليها التَّحدث معه، مسألة ملحة.

قال ماكس: «سآتيك في الحال».

«لا، ليس هنا. سأشرح لاحقًا».

اتَّفقا على أن يلتقيا في مطعم صغير في ضواحي المدينة. كان ماكس أول الواصلين، بعد برهة جاءت فريدا، تخفي وجهها خلف حجاب سميك. جلست، ازدردت كأس الكونياك الذي قدَّمه لها ماكس بجرعة واحدة، ودخلت مباشرة في صُلب الموضوع:

«أنت في ورطة كبيرة، ماكس. يجب أن تهرب بعيدًا».

«أهرب؟»

«تهرب».

وشى زوجها، بعد أن اكتشف أمر علاقتها مع ماكس وهارالد، بهما إلى الشرطة السِّرية. اعتُقل هارالد بالرغم من مرضه، وجرى التحقيق معه.

«هم الآن في طريقهم إلى إلقاء القبض عليك. ماكس. يجب أن تهرب من البلاد».

هي أجرت سلفًا جميع الاستعدادات اللازمة: اتصلت مع قبطان سفينة نقل، رجل يمكنهما الوثوق به. على ماكس

الذهاب إلى هامبورغ.

«لكن متى؟»

«اليوم. في الحال».

حدَّجها ماكس بنظرة مرتابة. بدت له قصَّة غريبة. هل عليه الهرب من البلاد؟ فقط لأنه كان على علاقة غرامية بفريدا؟ غير معقول! هو لم يقترف أي جريمة، ناهيك عن جريمة سياسية. يمكنه أن يفهم رغبتهم باعتقال هارالد، وسيبذل قصارى جهده لإخلاء سبيل صديقه (سبب آخر يدعوه للبقاء في برلين). لكن لماذا يا ترى يرغبون في توقيفه. ماكس؟ لماذا؟ بأية حال كانت فريدا مغمومة للغاية فقرر التظاهر بالموافقة على خطتها.

قال: «حسنًا، سأذهب إلى البيت وأبدأ بتوضيب...»

«لا، لا تفعل!» كانت فريدا الآن شديدة الهياج.» لا يمكنك. ماكس، سوف يلقون القبض عليك».

حاول أن يطمئنها ما استطاع، قائلًا لها ألا تقلق فهو

يدري ما يفعل. غادرا المطعم كل على حدة، استقلت سيارة أجرة، أما هو فقد ركب الحافلة. وصل إلى شارعه مع حلول الظَّلام. كانت أمه تنتظره عند النَّاصية. عرف مباشرة من التعبير المرتسم على وجهها صحَّة ما قالته له فريدا: كان النازيون بالفعل في إثره.

قالت أمه وهي على وشك البكاء: «إنهم في المنزل، لقد حققوا مع والدك...»

انفجرت بالبكاء. عانقها ماكس. وهمس قائلًا لها: «لا تقلقي، أنه مجرد سوء تفاهم وسوف ينجلي قريبًا، سترين، كل ما عليَّ فعله هو أن أختفي لفترة...» جفَّفت دموعها، ثم نظرت إليه، محاولة الابتسام. اذهب الآن، قالت، وليكن الله معك. فتحت محفظتها، وأخرجت جرابًا صغيرًا مصنوعًا من قماش قطيفة داكن.

«هذا بعض المال من أجلك، ومجوهراتي، ربما تكون مفيدة».

تبادلا القبل، ثم استدار ماكس وابتعد مسرعًا. ألقى بنظرة

إلى الوراء مرة واحدة فقط وكانت والدته لا تزال واقفة في الضباب الرقيق، بلا حراك. تلك كانت المرة الأخيرة التي يراها فيها.

اتصل بفريدا من هاتف عمومي ليطلب مزيدًا من المعلومات عن السَّفينة والرحلة. شرحت كل شيء بالتفصيل وطمأنته: «كما سبق أن قلت لك، يمكنك أن تثق بالقبطان، في الواقع هو من أقاربي. في غضون أسبوعين أو ثلاثة أسابيع سوف تنزل في مرفأ سانتوس في البرازيل».

فقط في تلك اللحظة أدرك ماكس أنه لم يسأل أبدًا عن وجهته. البرازيل؟ البلد الغريب؟ أولًا ملأته الفكرة بحماسة -طفولية غالبًا- أما بعد برهة، فكان على شفا الذعر. البرازيل؟ ماذا يعرف عن هذا المكان؛ البرازيل؟ لا يكاد يعرف شيئًا البتة، فقط ما تلقَّفه من قراءة كتب بيتر الصغير. ومن الإصغاء إلى قصص البروفسور كونز. في الواقع، كان لديه الكثير من الأسئلة غير المجاب عليها. أسئلة عن السكان الأصليين، على سبيل المثال. مظهرهم الجسدي. بنيتهم: طوال القامة أم قصارها، تغذيتهم جيدة أم منقوصة؟ لون وطبيعة شعورهم. لون عيونهم. شكل

جماجمهم. حالة أسنانهم. عاداتهم: غريبة الأطوار أم لا. نسبهم: قوقازي، مغولي، أو سواه؟ لغتهم، تراثهم، هل هناك إله معين يعبدونه؟ بأي نوع من الطقوس؟ ما هو الموقف الراهن من القرابين البشرية؟ بالنسبة لطباعهم؛ هل كانوا لطفاء؟ ثرثارين، كتومين؟ خيرين، مزدرين؟ سمحين مع الأجانب؟

أسئلة عن شكل حكومتهم. شعار دولتهم (وصف موجز قد يفي بالغرض). نشيدهم الوطني. علمهم. أسئلة عن محاصيلهم الزراعية. الملاحة السَّاحلية والتجارة. المناجم. النقل الجوي، البري، النهري، وعبر البحيرات. العملة.

أسئلة عن المناخ؛ جاف، ماطر؟ هل تهبُّ فيه الرياح التجارية أم لا؟ الرطوبة النسبية للجو. كيف سيكون حاله في الهواء المشبع بالرطوبة الذي يسبب صعوبة في التنفس وتحلل الملابس والأوراق؟

أسئلة -على الرغم من قصص كونز- عن الحياة النباتية والحيوانية. هل كانت صحيحة تلك الشائعات عن وجود

نباتات كبيرة آكلة للّحوم؟ أنواع من النباتات السحلبية. سنانير. سنانير.

«هيه! هيه! ماكس، هل تسمعني؟» كانت فريدا، نافذة الصبر.» أجبني، ماكس».

قال ماكس: «نعم، أستطيع سماعك».

أجابت: «حمدًا لله، ظننت أن الخط انقطع».

كانت الآن تودعه، لم تتمكن من قول المزيد، تمنَّت له حظًّا سعيدًا، وستدعو الله أنه ذات يوم...

«وداعًا»، قال ماكس. أغلق سمَّاعة الهاتف وتوجَّه إلى المحطة، حيث ركب القطار الذاهب إلى هامبورغ.

***

كانت بانتظاره أخبار مزعجة عند مراسي الميناء في هامبورغ: السَّفينة «شيللر» التي كان مزمعًا أن تقلَّه إلى البرازيل، أبحرت للتو. اقترح شخص ما سفينة نقل أخرى،

متجهة إلى نفس المقصد أيضًا. ذهب ماكس ليرى القبطان.

هذا القبطان من جنس مشؤوم بعض الشيء. كان له لحية طويلة سوداء، ومثل قراصنة الأزمنة الغابرة، وضع رقعة على عينه. حدَّج ماكس بنظرة مرتابة. نعم، هو مبحر إلى مرفأ سانتوس. لا، لا يقلُّ ركابًا. لكن ماكس أصرَّ وعرض أن يمنحه نصف ما يملك من نقود، ثم المبلغ بالكامل. استسلم القبطان في النهاية.

قال: «لكن أسمع جيدًا، لن أتحمَّل مسؤولية أي مما قد يحدث لك، هل هذا واضح؟».

ظن ماكس أن التَّحذير لم يكن سوى إجراءً شكليًا، لم يستطع أن يتكهن بما كان مخبَّأً له... قال ماكس إن هذا يناسبه، هو مستعد للذهاب، وليكن ما يكون. عندئذٍ أرشده القبطان إلى متن السفينة، ودلَّه على مقصورة ضيّقة خانقة.

«هذه أفضل ما لدينا».

قال ماكس إنها ممتازة. أقلعت سفينة «جرمانيا» في

تلك الليلة. راقب ماكس من سطح مؤخرة المركب أضواء المدينة تختفي في البعيد. قُضي الأمر.

***

كانت الأيَّام القليلة الأولى على سطح السفينة قاسية على ماكس. كان الطَّعام مريعًا، وأصيب بدوار البحر، لم يستطع النوم ليلًا بسبب ضجيج المحركات وبعض الضَّوضاء الغامضة؛ عواء وزعيق. كان كل شيء في غاية الغرابة، لكِن إذ ذاك كان يجري على سطح السَّفينة كثير من الأشياء الغريبة الأخرى. على سبيل المثال، ملاَّحو السَّفينة تجنبوه، لكن آنئذٍ لم يكن ماكس في وضع يمكِّنه من طرح الأسئلة، وبدرجة أقل أن يتذمر. بأية حال، اعتاد تدريجيًا الحياة على السطح.

لم يكن ماكس المسافر الوحيد على ما سبق أن أخبره به القبطان. كان هناك شخص آخر، رجل إيطالي كهل، مرح طيِّب الخلق، استعرض ظهر السَّفينة كما لو أنه يتجول على طول جادة عريضة في مدينة كبيرة. دومًا يرتدي بدلة وربطة عنق، ويحمل عصا فضيَّة الرأس. لم يكن السَّيد إتّوري هذا

يجيد التحدث بالألمانية كثيرًا، لكن مع ذلك بدأ ماكس يبحث عنه بعد أن علم أن الرجل عاش في البرازيل. قال لماكس إنه كان عائدًا إلى البلاد بعد جولة في أورُبا. كان يعمل مديرًا لحديقة حيوان أو ثُمَّت نوع من سيرك. كانت الحيوانات في معقِل السَّفينة (وهذا فسَّر العواء والزعيق الذي سمعه ماكس ليلًا). في واقع الأمر، أثارت الأخبار عن الحيوانات على متن السَّفينة خوف ماكس. تحدث إلى القبطان عن هذه المسألة مستجمعًا شجاعته. ضحك الرجل. خطر؟ إن كان هناك من أحد معرض للخطر، فهي الحيوانات المسكينة في قبضة تلك الحيوانات هناك، مشيرًا إلى البحارة.

كان السيد إتّوري متحمسًا للبرازيل. قال مؤكدًا لماكس إنَّ المرء يمكنه أن يكسب الكثير من المال هناك. وأضاف سريعًا، ولكن ليس أنا -وعلى وجهه ابتسامة خبيثة- ذلك فقط لأني لطالما استمتعت هناك بكل ما هو جيد في الحياة: النساء، والمقامرة، والشراب.

على أن الإيطالي كان ودودًا، لم يشعر ماكس بالارتياح التَّام معه. بدا له أنَّ ذلك السَّيد الإيطالي يخفي شيئًا، وأن

هناك سببًا خفيًا لرحلته. انطباع تعزَّز عندما رأى الإيطالي في مناسبتين مختلفتين أو ثلاثة، يتحدث بصوت خافت مع القبطان. مع ذلك كان ماكس مصممًا على عدم التورط في مشاكل، لديه الآن ما يكفيه منها. كل ما أراده هو الوصول إلى البرازيل، حيث سيقيم مدة سنة أو اثنتين حتى يغادر النَّازيون السُّلطة، وحينها يعود إلى ألمانيا؛ إلى الحياة العاديَّة التي كان يعيشها مع والديه، ويلتحق بالجامعة. تخيَّل اليوم الذي قد يروي فيه لأصدقائه عن رحلته على متن سفينة جرمانيا. تمنَّى لو كان وضعه الحالي أمرًا من الماضي. عندما فكر بوالديه راحت الدموع تنبع من عينيه. وبدل من أن يدوِّن يومياته، جعل يكتب رسائل طويلة مفجعة (هل سيتمكن يومًا من إرسالها؟)، وبهذه الطريقة بدا الوقت يمضي بسرعة أكبر، وكان الانفصال عن عائلته أقلّ إيلامًا. افتقد النمر على الخزانة أيضًا، وإذا كان لا يزال يأمل برؤيته ثانية ذات يوم، فذلك عائد إلى أنه لم يملك طريقة تمكنه من التنبؤ بالمستقبل.

ذات ليلة استيقظ ماكس يخالجه شعور بأن ثمة خطب يجري على سطح السفينة. كانت الحيوانات أكثر اضطرابًا

من المعتاد. جلس في السرير. نعم، شيء ما غريب كان يجري؛ سمع أصوات خطوات مسرعة، وصخب مبهم. ارتدى ثيابه على عجل وغادر مقصورته، وفي تلك اللحظة بالذات انطفأ الضوء. رأى في شبه ظلمة هيئات غامضة تجري جيئةً وذهابًا. ما الذي يجري؟ سأل، لكنه لم يحصل على جواب. صعد إلى السطح العلوي، وحينها فقط لاحظ أن السفينة كانت تميل، وأن ميلانها يتواصل على نحو أكثر سرعة. أيها القبطان! صرخ. سيد إتّوري! لم يجبه أحد، كان البحارة مشغولين في إنزال قوارب النجاة. حينئذٍ فقط لاح إلى ذهن ماكس: السَّفينة تغرق. أُنزلت قوارب النجاة سريعًا، وسريعًا لم يبق أحد على السطح. اندفع مذعورًا نحو الحافة العُلوية للسفينة.

«لا تتركوني وحيدًا!».

سدىً: كانت المراكب تبتعد بسرعة. آه، أيها الخونة، صرخ ماكس. فهم فجأة: لم يكن في نيَّة جرمانيا الوصول إلى وجهتها أبدًا، كان غرق السَّفينة مدبَّرًا منذ البداية. الآن بدأت الأمور تتضح؛ السُّلوك الغريب للقبطان، وللإيطالي، وأحاديثهما الخفيَّة. لا شك، كانا يخططان للحصول

على مبلغ التأمين على السفينة القديمة وعلى الحيوانات. بالإضافة لذلك، لا بد أن القبطان قرر الاحتفاظ بنقود ماكس أيضًا. هو بالتأكيد لم يتوقع أن ينجو ماكس ليروي الحقيقة. أيها المحتالان، زمجر، لكن لم يكن عليه تضييع الوقت، لأن غرق السَّفينة كان وشيكًا. اندفع إلى مؤخرة السفينة ويا لها من معجزة! وجد زورقًا صغيرًا. تمكَّن بصعوبة هائلة من إنزاله إلى البحر. ثم تحسَّس طريقه في الظلمة فوجد مجذافًا. عرف أن السَّفينة الغارقة تُحدث دوَّامة قوية بما فيه الكفاية لتبتلع الزوارق الصغيرة نحو الهاوية، ولذلك بدأ يجذِّف بكل ما أوتي من قوة.

مع خيوط الفجر الأولى، وجد ماكس نفسه في رحابة المحيط. تولّاه قلق شديد دفعه إلى البكاء. بكى بحرقة. يا لها من ورطة مشؤومة. يا لها من حياة مشؤومة. طفولة لم تكن سعيدة تمامًا، وفتوَّة معذَّبة، الفرار المتعجل من موطنه، وفوق كل شيء، كان غرق السَّفينة هذا يفوق الاحتمال. كان يبكي، نعم، يبكي ويوبخ نفسه أيضًا: لماذا يا ترى أقام علاقة مع امرأة متزوجة؟ مع يساري معتوه؟ ألم يعلم حينها أن الأمور كان مقيضًا لها أن تصل إلى نهاية سيئة؟

بكى ماكس فترة طويلة. جفَّف دموعه أخيرًا ونظر من حوله مستكينًا. الدموع لن تكون معينًا. عليه أن يُقيِّم الموقف ويقرر ما سيفعل بعد ذلك.

كان البحر الصَّقيل -واقعاً كان شبيهًا بمرآة- زاخرًا بحطام السفينة الغارقة، ونظرًا لعدم وجود سفن في الأفق، ربما عليه أن ينسى الإنقاذ السريع بعد قليل، أو في الأيام الموالية. كان الزَّورق متينًا ومجهزًا جيدًا للطوارئ؛ وجد ماكس في كيس كبير من القماش المشمَّع أطعمة معلَّبة، أوانٍ مليئة بالمياه، عدة صيد، كشَّاف. ما عزز شكوكه الأولية؛ ما هذه السفينة الغارقة سوى مكيدة. لكن انتعشت آماله من جديد؛ هو يملك الآن الوسائل التي ستمكنه من النجاة، كل ما عليه فعله هو انتظار سفينة عابرة لتنتشله.

أخطأ ماكس ثانية عندما افترض أن نُدرة الطعام كانت أعظم خطر قد يواجهه ناجٍ من سفينة غارقة. فهناك الشمس أيضًا.

بعد ظهيرة اليوم الثاني كان يعاني بالفعل من حروق شمسية حادة. شعر بالدُّوار، بآلام في الرأس، أدرك فزِعًا

أنه كان يهلوس. رأى في الأفق جبالًا، تلاشت عندما فرك عينيه، رأى درَّاجين في زي أبيض يركبون الأمواج. وفجأة كان هارالد جالسًا أمامه. هارالد! صرخ. يا للمفاجأة، هارالد! إذن تمكنت من الهرب، يا صديقي! وكنت على متن نفس السَّفينة، أيضًا! لكن لم يكن لدي فكرة بأنك كنت على متنها! على أي من هذه الهتافات لم يجب هارالد إلا بابتسامة كئيبة.

«هل أنت متألم مني، هارالد؟ هل تظن بأني خذلتك؟ لم أفعل، هارالد، كان عليَّ أن أسرع في الهرب. لم أتمكَّن حتى من وداع والدي، فقط أمي ودَّعتها وداعًا سريعًا. والله وحده يعلم متى سأراهما ثانية، هارالد... هيا الآن، هارالد، ليس هناك سبب يجعلك غاضبًا مني».

كان هارالد صامتًا، بابتسامة ثابتة على وجهه، الريح تلاعب شعره.

«لماذا لا تقول شيئًا، هارالد؟ هيَّا، يا رجل، تحدَّث إلي. علينا أن نناقش وضعنا... نبتكر خطة. نجاتنا على المحك. تحدث، هارالد! قل شيئًا!»

لم يأت هارالد بنأمة. ثم بلمح البصر طيَّرت الريح شعره. كاشفة عن شخص أصلع، وبعد هنيهة بدأ جلده يتقشر، ولم يعد وجهه سوى جمجمة مكشِّرة. مدَّ ماكس يده نحو صديقه مولولًا، لكن في تلك اللحظة تلاشت الرؤيا ووجد نفسه وحيدًا من جديد في الزورق. كانت هلوسة أخرى، أحدثتها الشمس ثانية. ينبغي عليه أن يحمي نفسه، لكن كيف؟ لم يكن هناك شيء في الزورق يمكن أن يستعمل كمظلّة.

ثم خطرت له فكرة. سوف يبني كوخًا من حطام سفينة جرمانيا الذي كان يعوم من حوله. صندوق خشبي كبير ينجرف. بدا مناسبًا لهذا الغرض. بدأ يجدف نحوه بعناء كبير.

سحب ماكس الصندوق نحو الزورق. وعند تفحُّصه، رأى غطاء على القمة مثبت بمغلاق، كان مكسورًا ويتدلى مُرسلًا. أزال المغلاق.

وثب شيء ما من الصُّندوق، طارحًا إياه بقوة فائقة نحو قعر الزَّورق. ارتطم رأس ماكس، وأغمي عليه. صحا

تدريجيًا. فتح عينيه. تردَّد صدى العواء الذي أطلقه في الهواء. كان أمامه، جالس على دكة الزورق، جغوَر.

الجغور في الزورق

أوه، يا إلهي، ساعدني. يا يسوع المسيح، ارحمني، أبي، أمي، تعالا إلى نجدتي. أرجوكما، النجدة... انتظر ماكس النهاية بعينين مغلقتين، متشبثًا بحواف الزورق، تهز جسده اختلاجات عنيفة، النهاية التي قد تأتي أولًا بضربة هائلة مرسلة من كفِّ الحيوان الضخم، لينقضَّ عليه بعد ذلك في الحال، ويغرز أنيابه في بطنه وذراعيه وفخذيه، يمزِّق لحمه، يسحق عظامه، ويعاني سكرات الموت وسط آلام معذِّبة... يا رب، أستودعك روحي.

ومع ذلك لم يحدث شيء. مرّت ثوانٍ أو ساعات، ولم يحدث شيء. فتح ماكس عينيه ببطء، لايزال مذعورًا.

كان الجغور لا يزال هناك، هامدًا، عيناه لا تحيدان عنه.

يا له من سِنّور ضخم. ربما لا يوازي النِّمر المحنَّط في متجر والده حجمًا، لكنه مع ذلك كبير إلى حد بعيد. لونه كان مختلفًا أيضًا؛ هذا كان أصفرَ ضاربًا إلى الحمرة مرقطًا بالأسود. في البداية، التبس على ماكس الأمر وظنه نمرًا، لكن الآن استطاع تحديد نوع السِّنور: كان بالفعل جغور (نمر الجغور)، بأيَّة حال، لم تمده هذه المعرفة بأي عزاء،

وكيف يمكنه أن يتعزَّى وهو يواجه أكثر الحيوانات إثارة للرعب في الأمريكيتين (المرجع: بيتر الصغير، بروفيسور كونز). كان ماكس عاجزًا عن تفسير أن الجغور لم يفترسه بعد، عندئذٍ، لم يكن ليبقى منه شيء. ربما بعض العظام المدمَّاة. قدم، بقايا من فروة الرأس.

ومع ذلك، بدا أن الجغور حتى ذلك الحين ليس راغبًا بالهجوم. ظلَّ الحيوان هامدًا وهادئًا، وكان يبدو ضجرًا أيضًا.

لماذا، لم يعرف ماكس. لم يعرف الكثير عن سلوك السِّنور، وحتى لو كان خبيرًا في هذا المجال، لم يكن قادرًا في ظل هذه الظروف أن يفكر تفكيرًا صحيحًا. ربما لم يكن الجغور جائعًا في تلك اللحظة، ربما تمَّ إطعامه قبل غرق السفينة (لماذا إذا كان محكومًا عليه بالموت؟). ربما شعر بالخطر في ذلك الزورق المتداعي، ربما كان خائفًا من البحر، لشدَّة اختلافه عن موطنه المعتاد. ربما شعر بالامتنان لماكس، مخلَّصه (ولو أنه مخلِّص مُكره)، ربما كان حيوانًا مروَّضًا، خاضعًا، خنوعًا مولعًا بالبشر. أو ربما كان حيوانًا ماكرًا يتظاهر بالهدوء، ينتظر اللحظة المواتية للهجوم.

استراح ماكس بعض الشيء. لم يعد الموت يبدو وشيك الحدوث، سينتظر، يستنبط شيئًا. ماذا لو يقفز في البحر ويسبح نحو الصندوق العائم، ويتبادل الأماكن مع السنور؟ وسوف يخسر حينها كل ما كان في الزورق، كل وسائل النجاة، لكن من ناحية أخرى، سيحظى بفرصة للهرب. نظر بطرف عينه إلى الصندوق مخمنًا المسافة: ليس بعيدًا جدًا، عشرون مترًا تقريبًا. كيف سيكون رد فعل الجغور إذا نهض ماكس فجأة وغطس في الماء؟ لا شكَّ أنه سوف يثب عليه، لكن هل سينجح في الإمساك به؟ وهو لا يزال في الزَّورق؟ في الهواء؟ هل سيتبعه الجغور إلى البحر؟ ومن سيكون السَّباح الأمهر بينهما؟ ماكس الذي فاز بوسام في المدرسة (مائة متر، سباحة الصدر، في فئة الأطفال)، أو السنور وهو ينتمي إلى أنواع معروفة كثيرًا ببغضها للماء؟ تخمين عقيم لأن الريح هبَّت في تلك اللحظة، تأرجح الصندوق، امتلأ بالماء وغرق.

أدرك ماكس حينئذ أنَّه مبلل. لقد تبوَّل في بنطاله من شدَّة الفزع. أمر لم يحدث له من قبل أبدًا، ليس حتى عندما كان طفلًا في أقصى حالات الرُّعب. يا للخزي! ذرف ماكس

بعض الدموع، الجغور يراقبه.

كانت الشَّمس في صدد الغروب، وكانا لا يزالان جامدين وجهًا لوجه. لم يكن ماكس مرتاحًا، يعاني من ألم في الظهر، لكنه لم يجرؤ على الحركة. أمِل فقط أن تظهر سفينة وتنقذه. لكنه لم يكن ليجازف حتى بالتَّلفت من حوله، لدى أي سهو من طرفه، قد ينقضّ الحيوان عليه. فكر أيضًا بأن ظهور سفينة في الأفق سوف يزيد الأمر سوءًا، لأنه ما لم ينجحوا في قتل الحيوان عن بعد -بطلقة قاتلة، كالطلقة التي أطلقها هانز شميت- سيكون ماكس أول من يعاني من العواقب إذا شعر الجغور بأنه محاصر. سفينة؟ لا. من الأفضل لا.

أطلق الجغور زئيرًا.

حسنًا، لم يكن زئيرًا بالضبط، أكثر شبهًا بمواء أجش، لكنه قوي بما فيه الكفاية ليجفل ماكس. فكاد يسقط في البحر. لم يكدْ يستردّ أنفاسه حتى أجفل ثانية: هدر الحيوان، وفتح فمه العريض على اتساعه. لم تفد النظرة الخاطفة على الأنياب الضَّخمة والحلق الأحمر في طمأنة ماكس

المسكين. أراد الجغور شيئًا، ليس هناك شك في ذلك، لكن ما هو؟

الطعام، بالتأكيد.

وبأي شيء آخر قد يرغب جغور؟ لا بد أنه جائع فهو لم يأكل منذ ساعات. خطر لماكس (ومن سواه هناك؟) أن يطعمه. لكن كيف؟ وماذا؟

زئير آخر. على ماكس أن يتصرف سريعًا.

خشية أن يسيء الحيوان فهم حركته، تناول بحذر شديد الكيس المصنوع من قماش مشَّمع، أخرج بسكويتًا، ووضعه على الأرض أمام الجغور. اشتمّ السِّنور البسكويت وحسب، دون أن يتنازل ليلمسه. استنتج ماكس -وهو يتفصَّد عرقًا- أنه ليس طعامه المفضَّل. بالتأكيد، فاللواحم تأكل اللحم، لا البسكويت. لكن من أين يا ترى سيحصل ماكس على اللحم؟ على لحمٍ طازج، يتقطَّر دمًا لكي يعجب جغور مفترس؟

دون أن يشيح ببصره عن الجغور. التقط ماكس خيط صنَّارة صيد (لحسن الحظ، كان هناك طعمٌ في الصنارة) ورماه في البحر، راجيًا أن تقضم سمكة الطُّعم قريبًا. كان محظوظًا: لم يمر وقت طويل حتى اصطاد سمكة متوسطة الحجم. وضعها أمام الجغور بخوف -كيف سيتلقَّى قربانه الجديد؟

تشمم السِّنور السَّمكة، لا تزال تتحرك، تصارع الموت. قتلها الجغور -يا له من مشهد تقشعر له الأبدان- بضربة واحدة من كفِّه، مزقها إربًا بمخالبه، ثم افترس القطع الدامية (تعلق ماكس بأمل عابر: سوف تخنقه، سوف تخنقه حتى الموت، وسرعان ما استبدله بالخوف: لكن قد يقتلني قبل أن يموت، أعقبه نوع ما من الارتياح لما بدا أن الجغور استطاب السَّمكة، ما قد يمثل بعض الحماية لشخص مثل ماكس، لطالما عدَّ نفسه صيادًا عاديًا، غير قادر على النَّجاة إذا كان وجوده يعتمد على الصيد، هذه الحرفة الأزلية).

التقط ماكس السمكة تلو الأخرى من البحر في تتابع سريع -هل يحتمل أن يكون وسط فوج سمك مهاجر؟- أعجوبة حقيقية، معجزة توراتية. لكن بمثل هذه السُّرعة كان

الجغور يلتهمها.

شعر ماكس فجأة بالجوع. جائعٌ بحقّ. انفتحت شهيته لمرأى الجغور يلتهم السمك، أدرك الآن أنه، هو أيضًا، لم يأكل منذ بعض الوقت. كان هناك البسكويت وبعض أنواع أخرى من المأكولات -لكن ما شعر به كان رغبة ملحَّة سخيفة لتذوق السَّمك الذي اصطاده بنفسه. ولو نيئًا، أراد سمكته. قطعة واحدة صغيرة قد تفي بالغرض.

بدا الجغور الآن متخمًا: وكان لا يزال في قعر الزَّورق ثلاث سمكات صغيرات. ماذا لو...؟ مدَّ ماكس يده ببطء.

واصل الجغور التَّحديق به بهدوء.

تزحف أصابع ماكس بضع مليميترات، ثم تتوقف، المزيد من المليميترات، ثم تتوقف ثانية. كان الآن على وشك الوصول إلى السمكة.

على حين غرَّة غطى الجغور السَّمكة بكفِّه. سقط ماكس على ظهره يتملَّكه الفزع. استعاد رباطة جأشه، ثم لاهثًا ظلَّ

هناك، يحملق نحو الجغور بعيون مشدوهة. أنا آسف، ظلَّ يتمتم، أنا آسف، لم أكن أقصد.

ثابَ إلى رشده فجأة. ماذا يفعل؟ يعتذر؟ ما نفع الاعتذار من حيوان؟ علاوة على ذلك؛ لماذا عليه أن يعتذر؟ في النِّهاية هو من اصطاد السَّمك، ألم يفعل؟ لا، لا اعتذارات. كانت تلك السَّمكات من حقه. إن لم يكن جميعها فعلى الأقل نصفها. سيرضى باثنتين، بل بواحدة. بالتأكيد، كان له الحقُّ في شيء ما.

كان ماكس يتطلَّع إليه وهو يقضم البسكويت القاسي الذي ازدراه الجغور، إلّا أنه لم يكن خائفًا الآن، بل ينظر باستياء يصل حد الكراهية. حيوان لاحم، حسنًا، لكن ما الداعي ليكون جائرًا للغاية؟ لماذا فظًّا للغاية؟

حلَّ الليل، ليلًا حالكًا غير مقمر. لم يتمكَّن ماكس من تمييز الشكل الظليل للجغور إلا لمامًا. هل خلد إلى النوم؟ ربما، فهو قد غذّي جيدًا في نهاية الأمر. وإذا كان نائمًا، هل يمكن أن...؟ لا، ماكس لم يكن يخطط لشيء، بأيَّة حال، عليه أن يطَّلع على عادات نوم الحيوانات ويدرسها بعناية

للرجوع إليها في المستقبل، قد تكون مثل هذه المعرفة مفيدة. وإذا كان حتى الآن لم يأتِ بأية خطط، فيمكنه أن يفكر عميقًا في هذه المسألة طوال الليل (الليالي؟) التي تنتظره.

تحرَّك ماكس باحتراس مطلق، التقط الكشَّاف.

أضاءه وهو لا يزال مترددًا للحظة -لتكن مشيئة الله. ومض شعاع النور في الظلمة، كانت عينا الجغور، ثابتتان عليه تبرقان. ارتعد ماكس، أطفأ الكشَّاف، ووضعه جانبًا.

عرف الآن. الجغور لم ينم. ولن ينام البتَّة. لم يستطع ماكس أن يُعوِّل في هربه على نوم الحيوان. علاوة على ذلك، كيف سيهرب؟ وإلى أين؟

استحوذ على ماكس اكتئابٌ شديد وحزن بالغ. عاد مجددًا بأفكاره إلى والده، أمه، وسريره المريح في برلين، شعر بتوقٍ شديد إلى البكاء، لكنه لم يبكِ. تكوَّر في قعر الزَّورق، وشرع يدندن أغنية لنفسه بصوت خافت؛ تهويدة كانت أمه تغنيها له: مساء الخير، ليلة سعيدة، تغطيك الزهور.

لا، لن تكون ليلة سعيدة، ولم يكن مكسوًا بالزهور. لكن مع ذلك، أخيرًا انجرف نحو النوم.

استيقظ مجفلًا. للحظة لم يعرف أين هو، مع ذلك سرعان ما عاد إليه كل شيء: غرق السفينة، الجغوَر... ويا للعجب، كان السِّنور هناك، يحملق فيه. حيوان لئيم -فكر ماكس. حيوان قاسٍ. حيوان كريه.

لا، ليس كريهًا. جميل هذا الجغوَر. ورائعة هذه الهيئة المظللة المرسومة تجاه السماء الآخذة بالإشراق. جلَّاد عديم الرأفة؟ أؤكد ذلك. لكن من ناحية أخرى الطَّبيعة هي من أعدَّته تمامًا لهذا الدَّور.

جلس ماكس على الدِّكة وتنفَّس الصُّعداء. نظر إلى البحر الهادئ وحكَّ رأسه. يَعدُ هذا اليوم بأن يكون جميلًا. يوم مثالي للإبحار في يخت...أعاده هدير الجغور إلى الواقع. أجفله لكن ليس أكثر مما ينبغي. عرف الآن ما ينبغي عليه فعله. رمى الصنارة في البحر، تمامًا كما في اليوم السَّابق، كان محظوظًا واصطاد عدة سمكات مباشرة وراقب السِّنور بنظرة حزينة وهو يلتهم السمك، متسائلًا فيما إذا سيصير

الصَّيد من أجل جغور وإطعامه عمله مدى الحياة. يا لها من نبوءة كئيبة لشخص سبق له أن ارتاد الجامعة! كم من الوقت عليه أن يرزح تحت نير هذه العبودية السخيفة؟

توقف الجغور عن الأكل ورفع رأسه، انتصبت أذناه وهدر بصوت خافت. نظر ماكس إليه متفاجئًا ومذعورًا. لا بد أن الحيوان استشعر خطرًا. لكن أي نوع من الخطر قد يكون، في تلك الرحابة المهجورة؟

سرعان ما عرف ماكس. انبثقت من سطح البحر زعنفة مثلثية الشَّكل على بعد حوالي مائة متر من الزورق، بدأت تتحرك بسرعة في حلقات.

قرش!

من المؤكد أن رائحة دم السمك استدرجته. لكن هل سيجرؤ القرش على مهاجمة المركب الصغير، حتى مع وجود حيوان يساويه، إن لم يكن يفوقه، تعطشًا للدماء على السطح؟ مرتجفًا، أمل ماكس ألا يفعلِ، وبشكل متناقض، كان وجود السِّنور مريحًا له، هو المسكين الناجي من سفينة

غارقة. كان الجغور خطرًا معروفًا يمكنه التَّعايش معه، على الأقل طالما بقي الحظ مواتيًا له في صيد السمك. مع ذلك، سوف ينتهي أمره إذا نجح القرش في قلب المركب الواهي. تمنَّى ماكس أن يحميه الجغور؛ معذِّبه القاسي. انزلق إلى قعر الزورق وجلس يحدِّق نحو الحافة العلوية للمركب في وجل.

استمر القرش إبحاره في حلقات. ماكس والجغور يتتبعان حركاته فيما يزداد اقترابًا. هجم القرش فجأة. اندفع بسرعة نحو الزَّورق مرتطمًا به. صرخ ماكس مرعوبًا من الصدمة المخيفة، وبعد برهة، انبثق الرَّأس الضَّخم القبيح قرب حافة المركب، ليتلقَّى من فوره ضربة قوية محطمة من كفِّ الجغور. اندفع القرش ثانية، فأرسل الجغور ضربة أخرى واهتزَّ المركب بعنف، مهددًا بأن ينقلب في أية لحظة. تشبَّث ماكس بالجغور غير مدرك ما هو فاعل، محاولًا منعه، لكن في تلك اللحظة بدأ القرش بالابتعاد، تاركا أثرًا من دم في المياه. بعد حين هدأ كل شيء.

كان ماكس لا يزال متشبثًا بالجغور مرتجفًا. ثم أدرك خشونة شعر الحيوان على وجهه، وأنفاسه اللاذعة. تمتم

مرعوبًا: «ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟».

أرخى ماكس العناق ببطء وعاد إلى دكَّته. عاد الجغور بهدوء، بعد أن حدَّق به لبرهة، إلى وجبته المنقطعة. أغمض ماكس عينيه.

(تذكرٌ مفاجئ. كان صبيًا في الرابعة من عمره مع والده وأمه إلى الطاولة. جاءت الخادمة تحمل طبقًا من اللحم. قطع والده قطعة كبيرة لنفسه وبدأ يمضغها بصوت عال. توقف على حين غرة. سألت زوجته، ما الخطب، هانز؟ لم يجب -حانقًا أحمر الوجه. ما الخطب؟ أصرت مذعورة. قفز على قدميه وقلب الطاولة، فصرخ ماكس الصغير من الخوف.

نعر والده قائلًا: «سبق أن قلت لك، لا أريد كمونًا في اللحم! لا أريد كمُّون، هل تسمعينني؟».

حاولت زوجته تهدئته فدفعها بعنف، سقطت، وجذبته معها. هرع ماكس إلى أبيه -وحينها أدرك ما كان يفعل، كان يعصر عنق والده بكل ما في ذراعيه الضعيفتين من قوة.

سأل والده متفاجئًا: «هيه، هل تريد أن تقتلني؟» ثم انفجر بالضحك. ضحكت والدته أيضًا، وهي لا تزال على الأرض. سريعًا ضحكت الخادمة أيضًا، وراح الجميع يضحكون، وحده ماكس كان يبكي. لماذا تبكي ماكس؟ ظلت الخادمة تسأل وهي تكاد تختنق بالضَّحك، لكن ماكس لم يجب، وحتى لو أجاب فلم تكن لتسمعه، وهي منهارة على كرسيها غارقة في الضحك).

وماذا لو كان هذا كله حلمًا؟ ولم يكن الجغور سوى كابوس؟ الجغور وغرق السفينة؟ الجغور، غرق السفينة، والهرب من ألمانيا؟ كل هذا لا شيء سوى كابوس رآه ماكس الشاب؟ أو لعله كابوس غير عادي وطويل ومؤلم للصبي ماكس، الذي غفا أخيرًا بعد يوم مليء بانفعالات شديدة (أب يقلب الطاولة... الخ)؟كان يلفُّهما ضباب خفيف الآن، فبدا الجغور هيئة مظللة تحيط بها حواف باهتة -هو أيضًا يمكن أن يكون هيئة في حلم. هدر السِّنور كما لو أنه خمَّن أفكار ماكس. هيئة في كابوس؟ ربما. لكن بجوعٍ نهم. تنهَّد ماكس وشرع في الصيد.

فكَّر ماكس في اليوم التالي، حسنًا، ربما لم يكن حلمًا

عندئذٍ. مع ذلك من المحتمل تمامًا أن يكون ضحية خدعة ما أو تجربة محاكاة. لفت التَّكرار الآلي في وتيرة الحيوانِ انتباهه على نحو خاص: يهدر، فيعطى سمكة، يهدر ثانية، يعطى المزيد. حتى ردّ فعل الحيوان إزاء الحالات الجديدة -كما حدث عندما حاول ماكس أن يحصل لنفسه على سمكة، أو عندما هاجم القرش- كان عبارة عن ضربات رتيبة مرسلة من كفه. كما لو أن الجغور روبوت! هل كان الجغور روبوت؟ جغور آلي؟ لم تكن الفكرة سخيفة كليًا. اعتاد ماكس على تلك الألعاب الميكانيكية التي كانت تحاكي تمامًا الحيوانات الحيَّة في نورنبيرغ. وأكثر من ذلك: أليس ممكنًا أن يكون هذا الجغور مدارًا بواسطة جهاز تحكُّم، ما يفسر القتال ضدَّ القرش أفضل تفسير، ناهيك عن قفزه من الصُّندوق نحو الزَّورق. لكن من أي مكان كان يتم التحكم به؟ ربما من غواصة. من خلال منظار لا يراه ماكس، ربما كانت عين تراقبه في تلك اللحظة بالذَّات، تسجل ردود أفعاله وهو يواجه الجغور الزائف.

لكن عيون من كانت؟ من كان يعرضه لمثل هذه المحنة؟ النازيون؟ لكن لأي غرض؟ كي يقودوه إلى الجنون؟ أو

لقتله؟ هراء، إذا كان هذا هدفهم، يمكنهم القضاء عليه الآن. لكن ماذا لو أن الأمر برمته كان تجربة، من تلك التجارب التي أجراها البروفسور كونز في مختبره؟ نعم؛ شاب، مثقف وحسَّاس، يخضع لسلسلة من الأحداث الصادمة: أولًا، قصة مفبركة لإجباره على الهرب من البلاد، ثم غرق السفينة، مشاركة الزَّورق مع ما يبدو أنه جغور شرس. كيف سيستجيب هذا الرجل؟ إذن، ها هو، مادة للاختبار؛ مريع، ومع ذلك مثير للاهتمام دون شك (من النوع الذي قد يسحر الطالب ماكس). ربما خبئت تحت جلد الجغور الزائف آلات مراقبة وتسجيل؛ العينان عدسات آلات تصوير، الأذنان لواقط للصوت، وهكذا.

أغضبت ماكس إمكانية أن يكون مُستغلًا، وإن يكن لأغراض علمية. نظر مباشرة صوب الجغور، وصرخ غير عابئٍ بلواقط الصوت التي قد تلتقط اندفاعته:

«يمكنك أن تعذبني حتى الموت أيها البروفسور! أنا لن أبوح البتة بمعلومات عن معنى الحياة!».

نظر الجغور إلى ماكس بدهشة صادقة قطعت الشَّك

باليقين. لا، لم يكن روبوت. لكنه قد يكون أيضًا جغور مروضًا وتم تكييفه ليتجول في متاهة مشاعره المعقَّدة، ليسد مسدَّ شريك له في صراعه من أجل البقاء، ليعامله بخشونة، لكنه لا يقتله، ليقوده إلى الغضب حتى نهاية مدخراته النفسية. تجربة ربما وضعها كونز شخصيًا. أو الحكومة البرازيلية في تواطؤ مع شركات الشحن لكي تختبر رباطة جأش المهاجرين من بلدان مختلفة.

كانت الشَّمس تهوي للغروب. هل فعلت أي شيء مفيد اليوم؟ كان على الأطفال أن يطرحوا مثل هذا السُّؤال على أنفسهم عند المساء، هذا ما كانت تقوله المُدرسة لماكس في صغره. هل ساعدت أحدًا؟ هل نظَّفتُ أو طليتُ أو ثبتُّ أو حسَّنت أيَّ شيء؟ هل عبرت عن امتناني لأحد؟ هل حييت جارًا بابتسامة؟ هل ساعدت سيدة مسنة على عبور الشارع؟ هل ربتُّ بلطف على ظهر قطة؟

لا، لا يبدو الجغور حيوانًا مدربًا. لم يبدُ حيوانًا على الإطلاق في ضوء الغسق السَّاحر عند البحر. بل مثل قط، قطٌ ضخم حقيقي، لكنه يبدو حزينًا وعاجزًا. أشفق ماكس أيضًا على هذا القط الكبير. ربما يمكنني ترويضه، فكر.

ولم لا؟ ألم تكن حقيقة أن السِّنور لم يفترسه دالةً على رغبة سرية بأن يكون خاضعًا، وعلى اعتراف ضمني بتفوق الجنس البشري؛ ملك المخلوقات (على ضعفه)، سيد البر والبحر (ولو أنه منزعج مؤقتًا وعلى نحو يمكن تفهمه من الأحداث المأساوية)، وفوق ذلك، الزورق المشيَّد بفضل إبداع ومهارة الكائنات البشرية الأخرى؟ كان هذا في النهاية حيوانًا وضع في الأسر، وتم برمجته: اعتاد أن يخضع ليحصل على الطعام، وباعتبار أنه كان يحصل الآن على الطعام، عليه أن يكون راغبًا بالخضوع ولو نظريًا. كان ماكس يفكر: «باعتبارك حيوانًا خنوعًا، ستكون عونًا كبيرًا لي عزيزي الجغور. أولًا، يمكنك أن تستعمل كفيك كمجدافين، وغريزتك كبوصلة، وهكذا قد نبلغ البر ونصل إلى البرازيل، هذه التي لم أعد أعرف إذا كانت موجودة في الحقيقة».

وحالما يصل إلى البرازيل، سيمنحه وجود الجغور معه صورة بليغة للقوة. لن يكون في وسع مواطن مقاومة رجل يمسك بزمام جغور. سيكون أي مشروع قد يُقدم عليه محققًا، سواء محطة تجارية في الغابة، زراعة المطاط، أو منجم الماس.

حلَّت الظلمة سريعًا. إذا اعتزم البدء بترويض الحيوان، عليه أن يعمل على ذلك من فوره. رفع قدمه، وعينيه دومًا على السِّنور، خلع حزامه وساطَ به الهواء.

«انتبه أيها القط! انتبه!».

كشَّر الجغور عن أنيابه وزمجر.

بدأ ماكس يرتعش، كان يرتعد خوفًا من جديد. عاجز عن كبح نفسه؛ ملك المخلوقات هذا (أيها الوضيع! أيها الجبان!)، سيد البرِّ والبحر هذا (أنت دودة حقيرة!) كان يرتعد بشدَّة حتى أن الزورق بدأ يرتج، لم يكن موشكًا على الانقلاب غير أنه كان يرتج. توجب عليه الجلوس. همس محدقًا بعيون مفتوحة باتساع نحو السِّنور، اهدأ، أيها القط الكبير، اهدأ، كل شيء على ما يرام.

التقط صنارة صيد السمك. كان لا يزال هناك بصيص ضوء يمكِّنه من الصيد، لعله يصطاد سمكة أو سمكتين صغيرتين.

مع ذلك اصطاد تلك الليلة عددًا من السَّمكات، لكن في اليوم التالي لم يصطد شيئًا، فقد تخلى عنه الحظ الذي كان حتى ذلك الحين إلى جانبه، ليس حتى سمكة سردين صغيرة. كان الجغور يبدي نفاد صبر متنامٍ. فتح ماكس الطعام المعلَّب الذي كان يدَّخره للطوارئ. وعلى نحو مذهل، أقبل السنور على النقانق والبسكويت أيضًا. أكل بشراهة أثارت الرُّعب في قلب ماكس. على هذا المعدل، سوف تنتهي مؤونة الطعام قريبًا. ماذا سيفعل حينها؟

بعد يومين لم يبقَ ما يأكله. ولم يكن ماكس قادرًا على صيد شيء. نظر إلى الجغور دائخًا وكليلًا.

«هاكَ أيها الشَّيطان. لم يعد لدينا طعام».

هو. لكن ليس الجغور...

ماكس هو الذي كان ضعيفًا جدًا، وعاجزًا عن التفكير، غير مهتم بالدِّفاع عن نفسه. إذا كان في نيَّة الجغور أن يفترسه، لماذا لا يتخلَّص منه سريعًا، ويضع حدًّا لعذابه؟ لم يعد يهمه شيء الآن. تمدَّد في قعر المركب، حتى إنه لم

يستودع روحه إلى الله. غطَّ في نوم عميق؛ أعمق نوم حظي به منذ أسابيع.

***

حلم بأنه عاد صبيًا صغيرًا ثانية، وأنه في البيت في برلين. مستلقيًا على سرير والديه، ينتظر عودة أمه التي ذهبت للتبضُّع، عرف بأنها ستجلب له هدية، وفي الواقع، عادت بقطة كبيرة طويلة الوبر. عصرها؛ ولم يكن ما ندَّ عن القطة مواءً بل صرخة حادة غريبة. ضحك ماكس على خيبة أمله: قطة صارخة، ما رأيك في ذلك؟ ثم بدأت أمه تصرخ دون توقف، بينما هو يزداد توترًا إلى أن استيقظ أخيرًا.

استيقظ، لكن الصراخ استمر. نهض بصعوبة، لم يلقِ بالًا للجغور، كما لو أن السِّنور غير موجود، ونظر من حوله منبهرًا من السُّطوع. كان طائر النورس يحوم فوق المركب، زاعقًا.

نورس! تلك كانت إشارة على دنو البر! إذن، لا بد أن السَّاحل ليس ببعيد. وإذا جاء هذا النَّورس الوحيد والجميل

من الشَّاطئ، فمن المؤكَّد أن يعود حالما يدرك أن هذا المركب، بخلاف غيره، ليس لديه ما يقدمه من طعام. وكل ما عليه فعله عندما ينطلق النورس عائدًا هو أن يتبعه. أمسك ماكس بالمجداف مستجمعًا ما بقي لديه من قوَّة.

«اذهب، أيها النورس الجميل!» صرخ بصوت أجش للغاية حتى أنه أجفله. «عد إلى بلادك، أيها النورس! إلى البرازيل، لنمض!».

مع ذلك لم يبدُ النَّورس مستعجلًا العودة إلى الشَّاطئ. واصل حومانه فوق الزَّورق وهو يزعق بمرح. جاء أخيرًا ليستريح على حافَّة المركب، قرب الجغور تمامًا.

ظل السِّنور يحدِّق بالطَّائر. تنبَّأ ماكس بما سيجري، لكنه قبل أن يصرخ: اهرب أيها النورس، اهرب من هذا القاتل؛ ضرب الجغور، وسريعًا لم يعد هناك نورس مرح بعد الآن، فقط كتلة دامية همَّ الجغور بالتهامها. أوه يا إلهي، تأوَّه ماكس. لم يعد لديه طاقة على احتمال المزيد. هذه الحال لم تعد تطاق، عليه أن يضع حدًا لها حالًا حتى لو كلَّفه الأمر حياته.

نهض على قدميه ممسكًا بالمجداف بيديه المرتعشتين. ليس حتى دقيقة أخرى! رفع الجغور رأسه.

«سأقتلك، أيها الشيطان!».

رشق نفسه على الجغور وانقضَّ الجغور عليه في نفس اللحظة. ارتطما في الهواء، وفقد ماكس وعيه.

فتح عينيه. كانت وجوه غرباء تميل نحو الأسفل، وجوه هجناء، سود، بيض أيضًا. كانوا جميعًا ينظرون إليه باستغراب ويتحدثون فيما بينهم بلغة لا يعرفها، لكنه خمَّن أن تكون البرتغالية. كانوا برازيليين. بيض، خلاسيين، سود، هُجناء... البرازيليون! كان ماكس في أمان، على سطح سفينة برازيلية.

حاول النهوض، لكنهم استبقوه. تقدَّم بحَّار أشقر وخاطبه بالألمانية.

«هل تشعر بتحسن؟».

أجاب مومئًا برأسه.

سأل: «أين أنا؟».

قال الرجل: «على ظهر سفينة، قرب السَّاحل البرازيلي»، وأضاف مبتسمًا: «لقد نجوت بأعجوبة، يا صديقي».

روى لماكس كيف وجدوه موشكًا على الغرق، ممسكًا بالزورق المنقلب على نحو متداع. نهض ماكس، عيناه تبرزان في محجريهما.

«والجغور؟ أين الجغور؟».

منعوه القيام، وجعلوه يستلقي ثانية. قال البَّحار شيئًا إلى زملائه. خمَّن ماكس ما كان يقول: إنه يهذي، إنه يخطرف، لا شك أنه عطشان بسبب هذه الشَّمس الحارقة. جلبوا له الماء. شربه بلهفة؛ يختنق ويبقبق. Mais؟ ظلوا يسألونه بالبرتغالية، وهو، وقد شعر بأن معنى الكلمة لا بد أن يكون: المزيد (ليست بهذه الصعوبة!)، ظل يردد الكلمة مغتبطًا بتعلمه الكلمة الأولى من لغة جديدة، ومبتهجًا بالبرازيليين من حوله. لم يعد يفكر بالجغور الآن.

تتالت الأيام، تملؤها رتابة مُستحبَّة. أولًا في حجرة التمريض الصغيرة في السفينة ولاحقًا مستندًا على كرسي طويل على السَّطح العُلوي للسَّفينة، لم يفعل ماكس شيئًا سوى الاسترخاء وتناول الطعام، متتبعًا تعليمات القبطان الأبويَّة الذي كان -مثله مثل بقية الطاقم- مراعيًا بشكل خاص لحاجات رجله النَّاجي من السفينة الغارقة. كان ماكس معافىً تمامًا عند وصول السفينة إلى وجهتها الأخيرة: مدينة بورتو آليغري. ستكون قادرًا على بدء حياة جديدة هنا، قال طاهي السفينة وهو رجل بدين من ولاية باهيا الشمالية.

فكّر ماكس، عندما نظر إلى سماء المدينة، قبل أن ينزل من السفينة: حياة جديدة، حسنًا، لن تكون بهذه السهولة. أخذ خطوة بالاتجاه الصحيح (خطوة صغيرة طبعًا) ببيع ساعته الذهبية إلى القبطان لكي يحمل معه ما يكفي من مال ليكون عونًا له خلال الأسابيع القليلة الأولى في بورتو آليغري (لا يزال يملك جواهر والدته التي حملها طوال تلك الرحلة في كيس صغير متدليًا من عنقه). نصحه القبطان بنزُل تديره سيدة ألمانية حيث يمكنه التَّفاهم معها إلى أن يتعلم

اللغة البرتغالية. كل شيء تمت تسويته في الوقت الحاضر. فيما بعد، كل شيء سيكون في رعاية الله.

أحبَّ ماكس بورتو آليغري التي كان يراها مدينة أورُبية، لاسيَّما حي فلوريتا الذي أقام فيه، بمحلات بيع المخبوزات والمتاجر الصغيرة العتيقة. صحيح أنه اكتشف لاحّقا الشَّحاذين والفقراء في حي بارتينون، لكن مع ذلك، لم يكن هذا الاكتشاف كافيًا لإفساد الصورة التي كوَّنها عن المدينة. أحبَّ المنظر الذي انبسط من نافذته بشكل خاص. كان النُّزل يقع على ربوة، وهكذا رأى أسطح أكواخ فلوريتا المكسوَّة بالآجر، لو كان فضوليًا، لأمكنه بسهولة مراقبة الجوار عبر نوافذهم المفتوحة. لكن لم تكن لديه رغبة بالتجسس على أحد، لم يرغب بالتورط في المشاكل. نظر فقط إلى الأسطح المكسوة بالآجر، إلى القطط الناعسة في الشمس، وإذا توانت تحديقته على طفل يلعب في الباحة، فربما بسبب ولعه بالأطفال، الشعور الذي لم يرغب بأن يخنقه في داخله.

لم يغادر غرفته إلا بالكاد أصلًا، غرفة كانت في واقع الحال مبهجة إلى حد كبير: كبيرة، نظيفة، مشمسة. بدأ

يدوِّن يومياته ثانية، مستهلًا إياها بفقرة عن الجغور، تفاصيل لم يتذكرها إلا بصعوبة متزايدة (تكاد تجعله يتساءل إذا ما كانت الحادثة برمتها لا تعدو أن تكون هذيانًا).

بدأ تدريجيًا يجازف بالخروج من ملجئه، بدءًا بنزهات في حيِّه، شرع لاحقًا في تعويد نفسه على المدينة ككل. اكتشف أن أمكنة مثل محطَّات الترام، الكوخ الخشبي في براسا كينزي، السُّوق، معرض شافيز، كانت مثيرة للاهتمام، ترتادها عيِّنة من أهالي بورتو آليغري. يركب الترام، ويترجل عند آخر الخط، ويتجول في الأحياء النَّائية مثل فلوريا، مينيو ديوس، بارتينون. ولرغبته في تعلم البرتغالية بأسرع ما يمكن، بدأ يتلقى دروسًا من إليزابيث ابنة صاحبة النزل، وهي فتاة شقراء يحيط بها جو حالم. أربك حضورها ماكس، لأنه أحس بأنَّها أيضًا ترتبك عندما يكونان معًا. يتضرجان حمرة إذا صادف أن التقت ركبتاهما تحت الطَّاولة، ويضحكان لإخفاء حرجهما. فيما بعد ينفجران بالضحك ثانية، ضحكة متوترة قصيرة، ثمَّ يَرين عليهما الصمت لفترة، ثم يتنهدان، وأخيرًا، يعودان إلى الاختبار الذي هما بصدده؛ رواية لجوزيه دي آلينكار، كاتب من القرن التاسع عشر عرف

بتصويره المثالي للهنود. هل أُعجبها؟ يتساءل ماكس. هل يمكن حدوث شيء ما بيننا؟

لم يكن لديه إجابة على هذه الأسئلة، وعلى أسئلة أخرى. في الواقع، كان من الصعب عليه أن يفكر بأي شيء سوى ماضيه الأليم. بكى غالبًا كلما فكَّر بوالديه. أحبَّ أن يكتب إليهما، أن يعلمهما بأن كل شيء على ما يرام -بخلاف فراره العَجِل- فقد كان يعيش في بلد شعبه ودود، وبأنه سعيد، أو يكاد. بأية حال، لم يجرؤ على أن يرسل رسالة، خوفًا من أن يتسبب ذلك بالمشاكل لوالديه. مما جمعه من قراءته للصحف عرف أن النظام النازي يزداد رسوخًا وتغطرسًا، وتعصبًا تجاه خصومه الحقيقيين أو المتخيلين. لم يتطرَّق يومًا إلى هذا الموضوع مع صاحبة النزل أو ابنتها، لم تكن لديه فكرة عما قد يكون عليه رأيهما، ولم يرغب بخلق حالة محرجة. علاوة على ذلك، كان لديه مشاكل أكثر إلحاحًا: نفد ثمن ساعته، على الرغم من الحياة المتواضعة التي عاشها. لم يتمكن من إيجاد عمل، فهو بالكاد يتحدَّث لغة البلاد، والأسوأ أنه لم يكن يملك مهارات. حصل مرة على عمل في متجر لبيع الزهور، لكن المالك، أراد شخصًا أكثر

خبرة ومثابرة وانتهى الأمر بطرده.

بدأ ماكس أخيرًا يفكر ببيع مجوهرات أمه التي حملها دائمًا في جراب صغير معلق حول عنقه. اتخذ قرار بيعها المؤلم على مضض، في الواقع، كان يأمل أنه سيتمكن ذات يوم من إعادتها إلى أمه وسط القبل ودموع الفرح. لكنه الآن تخلَّف عند دفع الإيجار وعن دفع أجر دروس اللغة أيضًا، وزادت حالته بؤسًا. ثم رأى إعلانًا صغيرًا في صحيفة كوريو دو بوفو: «نشتري المجوهرات، والذهب، والقطع الأثرية». ذهب إلى العنوان المفترض.

كان قصرًا قرب شارع فولنتاريوس دا باتريا، بناء له هيئة مشؤومة حتى أن ماكس بدأ يعيد النظر في أمره، كان على وشك العودة إلى البيت. مع ذلك، لم يتمكن من تأجيل حل مشكلته المالية أكثر، لهذا استجمع شجاعته، وقرع الباب. فتح الباب رجل عجوز ملتحفٌ بمعطف طويل أسود. حدَّق نحو ماكس بارتياب قبل أن يسأله الدُّخول. ثم قاد ماكس إلى غرفة خافتة الإضاءة، على جدرانها الرطبة المبقعة صور لرجال مسنين بلحى بيضاء وعقيلاتهم تغطين رؤوسهن بشالات: عرف ماكس أنهم يهود.

فحص التَّاجر المجوهرات مطولًا بعدسة مكبرة. كان العرض الذي قدمه بعد ذلك أقل بكثير من السِّعر الرَّائج لمجوهرات من نوعيَّة مشابهة، إن لم تكن رديئة، عرف ماكس، لأنه كان يعرِّج على متاجر المجوهرات، فثارت ثائرته. يا له من عرقٍ طمَّاع بخيل! من هذه الناحية على الأقل، كان هتلر محقًا: سوف يكون العالم أفضل دون هذه النَّماذج الجشعة.

«كان عليَّ أن أكون أكثر اطلاعًا»، قال بغضب، «ماذا يمكنك أن تنتظر من يهودي أكثر من ذلك؟» جمع المجوهرات بأصابع مرتجفة بينما نظر الرجل العجوز صامتًا. نهض وتوجه نحو الباب.

«لحظة، سيد ماكس»، قال الرجل المسن بالألمانية. «لم ننه صفقتنا بعد. هلّا جلست، من فضلك؟» منزعجًا، تردد ماكس لكن أخيرًا جلس.

«دعنا نزاول فنَّ المساومة القديم، فنًّا لا يزال معروفًا في هذا البلد. حسنًا، إذن، ما قدمته لك لا يساوي شيئًا إلا بالكاد، صحيح؟» لم يتمكن ماكس من استبطان ما كان يريد

الرجل الوصول إليه.

«بالكاد أي شيء، صحيح؟» أصرَّ الرَّجل المسن.

«نعم»، اعترف ماكس منزعجًا.

«إذن قلها: هذا بالكاد أي شيء».

جلس ماكس حائرًا هناك يحدق به.

«هيا، قلها!» أمره الرجل المسن.

«هذا بالكاد أيَّ شيء»، قال ماكس.

«إنها ممتلكاتي الثَّمينة...»

«إنها ممتلكاتي الثمينة...»

«أريد أن أحصل لقائها على المزيد من المال».

«أريد أن أحصل لقائها على المزيد من المال». نهض ماكس على قدميه.» اسمع، إذا كنت تظن...»

«أنا لا أظنُّ شيئًا»، قال التَّاجر بجفاء. «سمعت ما قلته: هذا بالكاد شيئًا، إنها ممتلكاتي الثمينة، أريد أن أحصل لقائها على المزيد من المال. حسنًا، سأضاعف عرضي».

حدَّق ماكس بدهشة نحو الرجل المسن.

«سأعطيك ثلاثة أضعاف، ما رأيك؟ ثلاثة أضعاف؟»

الآن كان المبلغ أكبر مما كان ينتظره ماكس، مدهوشًا تاهت منه الكلمات.

«هل أنت راضٍ؟» سأل التَّاجر. وعندما لم يجب ماكس، أصرَّ: «هل أنت راض؟».

«نعم»، تمتم ماكس.

«بصوت أعلى من فضلك».

«نعم!» صرخ ماكس. «أنا راض».

عد الرجل العجوز النقود.

«هلا عددت المبلغ؟»

«ليس ضروريًا...»

«عدَّه، من فضلك لا يمكنك أن تثق بأحد. يجب أن تعرف ذلك».

عدَّ ماكس النقود ووضعها في جيوبه.

«هل هناك أي شكوى بشأن الصفقة؟» سأل الرجل المسنّ.

«لا»، قال ماكس متجهمًا.

«هل أُزعجك لو...» -أضاءت ابتسامة شاحبة وجه العجوز المغضن- «إذا ربحت من بيع هذه الجواهر التي تثمنها كثيرًا؟».

قال ماكس: «لا».

«ربح مئة بالمائة؟ ألن يزعجك؟ ماذا عن ربح مائتين بالمائة؟».

«لا».

قال العجوز: «جيِّد»، ونهض.

«وداعًا إذن سيد ماكس. واحرص على نقودك».

غادر ماكس وهو لا يزال في حيرة من أمره. حالما أصبح في الشارع، شعر بغضب مفاجئ وبرغبة بالعودة إلى هناك ليرمي النقود في وجه الرجل. لكن ماكس عانى ما فيه الكفاية من الذُّل ذلك اليوم. علاوة على ذلك، بدأت لفافة المال السَّميكة في جيبه تخلق إحساسًا ممتعًا. كان ثريًا! لديه رأس مال كافٍ ليؤسس عملًا صغيرًا، ربما شيئًا راقيًا مثل مكتبة أو معرضًا فنيًا، أو يمكنه أن يتاجر بالعقارات، يعيش من ريع تأجير ممتلكاته، ويكرِّس وقته للدراسات والأعمال البحثية. أو يمكنه أن يستثمر النقود عبر سندات وأسهم في البورصة، وبهذا يزداد غنى أكثر، في النهاية، كما قال السيد إتّوري، كانت البرازيل بلدًا يمكن للنَّاس فيه أن يصبحوا أثرياء بين عشية وضحاها. نعم، كانت توقعاته رائعة، وليحتفل، قرر أن يطلب من صاحبة النُّزل وابنتها الخروج للعشاء.

في المساء، اختاروا مطعمًا صغيرًا أنيسًا، فيه عازف بيانو بشوش الوجه. كان الطعام رائعًا، والنبيذ ممتازًا. شربوا عدة أنخاب للمستقبل. تبادل ماكس والفتاة النظرات بحب كلما رفعا كأسيهما. قال ماكس إنه ينوي العودة إلى ألمانيا، وإنه سيأخذهما معه ليقدمهما إلى والديه. كانت صاحبة النزل، وهي امرأة متحفِّظة في العادة، في مزاج عال، بل إنها غنَّت أغنية بمصاحبة عازف البيانو.

رأى ماكس تلك الليلة حلمًا.

كان في مسرح في برلين، نفس المسرح الذي كانت أمه تصحبه إليه عندما كان صبيًا. هو وحده الجمهور، وكان ينتظر برمًا انطلاق المسرحية.

عندما رفعت الستارة، ظهر قزم بشع على المنصة وأعلن عن عرض أوبرا بارسيفال لفاغنر. بعد لحظة، ظهر والده. ملتحفًا رداءً طويلاً ويضع زينة مضحكة على وجهه، فتح حينها ذراعيه كما لو أنه على وشك أن ينطلق بالغناء، لكن بدلًا من ذلك بدأ بالمواء مثل قط. يا للخزي، ظل ماكس يفكر والدموع تجري على وجهه. تمنَّى لو يتوقَّف والده عن

تلك الحماقة لكن لا، استمر بالمواء طويلًا إلى أن استيقظ ماكس.

لكن المواء استمر. مثل زعيق النَّورس فوق الزَّورق. فكَّر ماكس (لكن هل كان هناك حقًا نورس؟). نظر إلى الساعة: كانت تشير إلى عشرين دقيقة بعد منتصف الليل. نهض وتوجّه إلى النافذة. القطة لم تكن في مرمى النظر. مع ذلك، لا بد أن تكون في مكان ما، ربما في الفناء الخلفي للمنزل المجاور، تموء بصوت مرتفع. انصرفي! صرخ ماكس صرخة مكظومة نوعًا ما، لأنه كان في الحقيقة خجلًا من الأمر الذي كان سخيفًا إلى حد ما. انصرفي!

استمرَّت القطة بالمواء. كرر ماكس أمره، هذه المرَّة بالألمانية. لا شيء. التقط ساخطًا أول غرض في متناوله؛ حذاءه، وقذفه نحو الفناء. توقَّف المواء لفترة ليبدأ مجددًا بعد برهة. عاد ماكس إلى السرير ودسَّ رأسه تحت الوسائد. سدىً تردد المواء هناك كما لو في مغارة. ولم يستفد شيئًا من سد أذنيه، أو دندنته لنفسه: لا يزال يسمع الهر اللعين، ينتحب مثل طفل مهجور. أخيرًا، نام منهكًا.

نهض ماكس في اليوم التالي في مزاج سيء يعاني من الصُّداع. الأسوأ من ذلك كان أنه الآن دون حذاء ينتعله. أطلّ من النافذة، ورآه هناك في فناء الجيران، نصف غارق في بركة ماء. كان المطر يهطل في الخارج. من الواضح أن الذَّهاب إلى هناك وجلبه أمر مستحيل. قرر الخروج لشراء حذاء جديد.

«ما الأمر، سيد ماكس؟» استفسرت صاحبة النزل عندما رأته في خفِّه.

«حذائي يؤلم قدمي»، قال، «أنا ذاهب لشراء حذاء جديد». وتسلل قبل أن تتمكن من طرح أي أسئلة أخرى.

تكرر المواء تلك الليلة، وفي الليلة التالية أيضًا، لكن ماكس كان مستعدًا جيدًا، مسلحًا بمقلاع اشتراه من ولد في الجوار، وبمؤونة جيدة من الحصى من أحجام مختلفة. مستعدًا الآن لتصيد القط، أينما كان، وحتى مجازفًا بكسر آجر السَّطح أو ألواح النوافذ. كان بالفعل برمًا لأنه انتظر

لحن[2] الهر الغرامي، وما إن بدأ حتى قفز ماكس من السرير وفتح النافذة على مصراعيها.

ما رآه من خلال النافذة المفتوحة للمنزل المجاور أنساه أمر القط ومموائه.

وقف رجل ينظر إلى نفسه في المرآة.

ما من خطب في رجل ينظر إلى نفسه في المرآة.

لولا الملابس التي كان يرتديها: قميص بني، ربطة عنق سوداء، حذاء حتى الركبة. كان ماكس معتاد جدًا على تلك الملابس، وكما لو أن هذا لم يكن كافيًا، كان الرجل أيضًا يضع شارة عسكرية استطاع ماكس أن يتعرف على الصَّليب المعقوف المرسوم عليها. وحيدًا في حجرة نومه، واثقًا من أن أحدًا لا يراقبه في مثل تلك السَّاعة -كانت الثانية صباحًا- والرجل مستغرق في القيام بتمثيل إيمائي مستغرب: يرفع ذراعه اليمنى، بعد لحظة، يبدأ في الإيماء كما لو أنه يلقي

(2) Serenade: وهي مقطوعة موسيقية تغنى أو تعزف عادة من قبل رجل في الهواء الطلق في الليل تحت نافذة محبوبته.

خطابًا للجمهور، ثم يقترب من المرآة ويبتسم بشكل مغو.

بعد حين، تثاءب الرجل، متعبًا على ما يبدو من اشتراع هذا المشهد، خلع ملابسه بعناية ووضعها في الخزانة، ثم ارتدى بيجامته. أطفأ المصباح ولم يعد ماكس يرى شيئًا.

أغلق ماكس النَّافذة وجلس على حافَّة السرير. مع أن القط توقف عن المواء، لم يتمكن من النوم، ليس بعد ما شهده.

نازي في بورتو آليغري! نازي في الجوار. نازي... واحد فقط؟ الشخص الذي رآه، لكن كم كان يوجد في هذه المنطقة؟ في المدينة؟ في البرازيل؟ البلد الذي أحس بأنه جنة على الأرض، والآن بدا أنه يهدده.مع ذلك، استعاد رباطة جأشه. اهدأ؛ ماكس، اهدأ. ما من نازيٍّ يراقبك. أنت من يراقب النازي. لكن هل كان الرجل نازي حقًا؟ ما رآه كان رجلًا في زي نازي مستغرق في إيماءات غرائبية، وهذا لا يعني بالضرورة أنه كان بالفعل نازيًّا. يمكن أن يكون شخصًا لديه انجذاب خفي وغير مصرّحٍ به نحو النازية، شخص ميال إلى تمثيل خيالاته في منتصف الليل.

أخذ ماكس يراقب المنزل المجاور. رأى الرجل في مناسبات عدَّة، لكنه لم يره أبدًا في الزي الرسمي. كان أحيانًا الوالد المحب الذي يروي القصص لأطفاله (أربعة، الأكبر في حوالي العاشرة من عمره) أو الزوج حسن الانتباه الذي يجلب الزهور إلى زوجته، أو الابن المخلص الذي يدعو والديْه المسنين على العشاء، عندما ينوي فتح زجاجة النبيذ ويشرب بصحة الجميع، أو الصديق المحب الذي يدعو رفاقه العمال إلى حفلة شواء في باحة بيته الخلفية. أحيانًا كان ينشغل بأعمال البستنة، أحيانًا لعب مع كلبه، أحيانًا (وعادة أيام الآحاد) أخذ قيلولة على الأرجوحة الشَّبكية، المعلقة بين ظلي شجرتين. باختصار، لم يبدُ هذا الرجل المتوسط الطول ذو الوجه العادي تمامًا مختلفًا بأي شكل عن بقية الجيران.

بدأ ماكس يشك بحقيقة ما رآه تلك الليلة. تساءل مرة أخرى فيما إذا كان ضحية هذيان، أو قد يكون مجرد حلم آخر، واحد من أحلام كثيرة أفجعته منذ طفولته. قرر أن ينسى الأمر برمته، ويتوقف عن النَّظر من النافذة ليلًا (حتى لو أصرَّ القط على المواء دون توقف). قد يكون من الحكمة

أن ينام قليلًا. بدأ يتناول المنومات لهذا الغرض.

بعد عدة أسابيع نسي (أو كاد ينسى) الحادثة وشعر بالطمأنينة. لكن حينها جرى تحول في الأحداث. ذات يوم كان عليه الذَّهاب إلى وسط المدينة. كان لديه موعد مع سمسار، قريب لصاحبة النزل التي أوصت به على أنه نزيهًا وكفُؤًا.

أراد ماكس أن يعرف إذا كان ممكنًا استثمار نقوده في سوق الأوراق المالية، كان تواقًا للانخراط في أي دائرة نشاط، علاوة على ذلك، ليس في وسعه أن يترك نقوده خاملة.

بينما كان يسير في شارع دا برايا لفت انتباهه حشد صغير متجمع في جوار براسا دا الفانديغا. ذهب في ذلك الاتجاه.

كان موكبًا. أغلبه من الشُّبان، وجميعهم يرتدون زيًا مشابهًا لزي جاره، جميعهم يمدون أذرعهم في تحية موحدة، يضعون شارة عسكرية، ولو أنها ليست تمامًا كالصَّليب المعقوف، كما استطاع ماكس الآن أن يتأكد، إلا

أنها ذكرته على نحو مشؤوم بشعار النَّازية.

ابتعد ماكس بسرعة. شعر بالسقام؛ دائخًا، ومتقززًا. دخل حانة وجلس. هرع المالك جزعًا إليه: هل في وسعي مساعدتك؟ طلب ماكس كأس ماء. جلب له الرجل الماء، ثم نظر إلى الخارج، قال معلقًا: هؤلاء الرجال يجعلوني أشعر بالغثيان أنا أيضًا، لكن لا يستحقون أن تقلق بشأنهم. طلب ماكس من الرجل أن يطلب له سيَّارة أجرة. وعند وصوله إلى نزله، أقفل باب غرفته على نفسه، واستلقى.

كان عليه أن يفكِّر، أن يصفِّي أفكاره. لم يستطع. الموكب، المظهر الباذخ للشبان، الأذرع الممدودة، الأعلام، قرع الطُّبول، الأمر برمته أزعجه بشدة. بطبيعة الحال، هو حينها لم يكن يعرف شيئًا عن إنتيغراليزمو، الحركة اليمينية البرازيلية التي ازدهرت في الثلاثينات، أو عن قائدها بلينيو ساوغادو. لاحقًا علم عن مثل هذه الأمور، لكن مع ذلك، خمن أن ما رآه مظاهرة نازية نموذجية، ربما يمثل التباين الضئيل تطويعًا لعقيدة النازية كي تتلاءم مع طبيعة البلاد والعالم الجديد.

شعر بالخطر بأية حال، بالخطر والتهديد، كما شعر يوم مغادرته ألمانيا، بالخطر والتهديد كما شعر في تلك الأيام التي أمضاها على متن الزورق. حتى عبور المحيط ومواجهة الجغور لم تحمه من معذِّبيه. مجدداً، المدينة التي بدت ودودة جدًا في ذلك الصباح المشمس، تكشف الآن عن أخطارها الخفية. كان خائفًا أيضًا من العودة إلى غرفته، إلى مأواه المعتاد. كيف يمكنه أن يكون واثقًا من أنَّ صاحبة النزل لم تكن متعاطفة مع هتلر؟ أو أن ابنتها لم تكن جاسوسة -أخفت لاقطات صوت تحت روايات جوزيه دي آلينكار- يخفي لطفها صرامة باردة لعميل سري؟

لا، لم يعد في وسعه البقاء في بورتو آليغري بعد الآن. لكن إلى أين يمكنه الذهاب وليس لديه بطاقة شخصية؟ سوف لن يكون قادرًا على مغادرة البلاد. عليه أن يجد مكانًا صغيرًا نائيًا لم يتأثر بعد بهذا الصراع. لكن إلى أين؟ نظر إلى خريطة ولاية ريو غراندي دي سول التي علقها على الجدار لكي يدرّب نفسه على أسماء مدنها وبلداتها.

إلى أين سيذهب؟ في أي منطقة سيشعر بالارتياح أكثر؟ بالتأكيد ليس في أقصى الجنوب، على طول الحدود مع

الأورغواي. لا شيء هناك سوى أراضٍ شاسعة يقطعها رعاة البقر «الغاوتشو» على خيولهم عدوًا، وهو لا يجيد أيضًا امتطاء الخيل. سيكون الشمال أو الشمال الشرقي للولاية أكثر ملائمة، يمكنه شراء قطعة أرض هناك، ولن يلاحظه أحد بين الكثير من المهاجرين الذين يعيشون الآن في تلك المنطقة. وفيما هو يفكر بمثل هذه الأمور، كان يحزم على نحو محموم متاعه القليل في حقيبة. ارتدى معطفه ونزل الدرج. نظرت صاحبة النُّزل مندهشة إليه.

«هل ستغادرنا، سيد ماكس؟ فجأة؟»

قال ماكس: «عمل طارئ».

بدا صوته غريبًا، مخنوقًا. لم تقلْ المرأة شيئًا، وحسبها أن أخذت المال المقدم إليها. تبين أن وداعه لإليزابيث أكثر صعوبة. هي أيضًا لم تقل شيئًا لكنها بذلت جهدًا كبيرًا لتمنع دموعها.

حاول ماكس أن يسخر من الظَّرف؛ في النهاية، لن يكون انفصالًا أبديًا، فهو ليس متوجهًا إلى كوكب آخر.

ربما سيراهما ثانية قريبًا، من يعلم.

***

في ذلك اليوم بالذَّات اشترى ماكس سيارة من نوع «فورد أ» وانطلق في رحلته.

كان عليه أن يسير ببطء متوقفًا عدة مرات، بسبب سوء الطرقات، ولأنه لم يكن سائقًا ماهرًا، فقد قاد سيارة والده القديمة بين الحين وآخر فقط. لكن كانت الأمور إجمالاً على ما يرام. أراد أن يكون لديه متسعًا من الوقت ليستكشف المنطقة، وأن يفكِّر بالأمور علاوة على ذلك. كانت الأيام جميلة والرحلة ممتعة على كون الطرقات مغبرَّة. لوَّح عمال المزارع له وهو يمر بهم، وردّ عليهم بحماسةٍ وحب. وهو بعيد الآن عن المدينة ومواكبها المشؤومة، كان شعوره آخذًا بالتحسن، وحتى لو كان وحيدًا في السيارة، على الأقل لم يكن هناك حيوان مهدِّد جالس إلى جانبه. ما من جغوَر.

كان الآن في الجبال. مخلِّفًا وراءه المناطق الآهلة. منذ الآن فصاعدًا، لن يكون سوى الجبال والغابات.

ليست الأدغال التي كان يتحدث عنها البروفسور كونز، بل الغابات التي كانت بأية حال كثيفة ومصمتة، موئل الطيور الغريبة، القرود المضحكة، والسِّنوريات البرازيلية (رعشة خوف)، أو بعض منها على الأقل. عرف ماكس أن منطقة ريّو غراندي دو سول لم تكن غنيَّة بالحيوانات البرية على وجه الخصوص، لكن خياله أخذ على عاتقه أن يُعمِّر الغابة بالسَّنانير الغريبة. مع هذا واصل القيادة متجهًا صوب المجهول.

الكوجَر عند أعلى التلة

قاد ماكس لأيام عبر المنطقة الجبلية. كان واثقًا من أنه سيجد هناك الملاذ الذي يبحث عنه. في مدينة كاشياس دو سول تفاوض مع سمسار لشراء عقار. بدا الرجل شبيهًا بالسيد إتّوري، ما أثار القلق في نفس ماكس. هل كان يعهد بنقوده إلى محتال؟ لكنه سرعان ما دحض شكوكه؛ جرت الصفقة بطريقة شرعية، كانت جميع الوثائق على ما يرام. وضعُ ماكس هو الذي لم يكن نظاميًا كمهاجر غير شرعي. أبدى سمسار العقارات تفهمًا فحصل لماكس على وثائق الجنسية مقابل مبلغ صغير من المال. عندئذٍ أصبح ماكس شميت برازيليًا ومالكًا لقطعة من أرض البرازيل.

كانت قطعة أرض ممتازة. بالأحرى مزرعة صغيرة بمعايير تلك الأيـام، تقدر مساحتها بمائتين وعشرين هكتارًا، كانت الأرض موفورة المياه مكوَّنة من سفحين خصبين. وكان هناك أيضًا منزل متواضع، بجدران مصنوعة من الأملود المضفور، مثل جميع المساكن الأخرى في الملكيات المجاورة، لكنه مريح نسبيًا. كان مزوَّدًا بالكهرباء أيضًا، عن طريق مولدة كهربائية. المنظر الطبيعي جميل للغاية؛ كان العقار على أرض مرتفعة، يطلُّ على المنطقة

برمتها. مكان واحد فقط يفوقه ارتفاعًا: تلة عالية وعرة مكسوَّة بالخضرة الكثيفة، معروفة باسم سيرّو فيرجي. تنتهي ملكية ماكس عند سفح تلك التلة.

استقرَّ في بيته الجديد بتباهٍ مشوبٍ بالحزن. لم يكن الحزن عظيمًا كالذي شعر به لدى مغادرته ألمانيا، بل أكثر استكانة وخفوتًا، كآبة. كان ماكس في هذا الوقت رجلًا مستكينًا صلبًا، في سن لا يفكر فيه الشبان عادةً إلا فيما سيفعلونه بعد التخرج من الجامعة. هرمَ وجهه قبل الأوان، ظهرت عليه سمات ما عاناه من تقلبات: تجاعيد وتكشيرة مريرة. بأيَّة حال، لم يعد يهمه بعد الآن شيء مما قاساه. أراد أن يبدأ حياة جديدة. لم يكن يملك أدنى فكرة عن نوع هذه الحياة، ولم يكن يهتم. سيعرف مع مرور الأيام، الأسابيع، السنوات.

مع ذلك تأثر بأمر ما: حقيقة أنه كان قريبًا من الأرض. بالنظر إلى خلفيته العلمية، لم يكن يعرف الكثير عن الزراعة، زرع عرائش العنب بمساعدة عامل مزرعة صامت من المنطقة، تمامًا كما فعل جيرانه، غرس بستان خضار أيضًا، ورقعة أرض بالذرة، بالإضافة إلى ذلك، ربَّى

الخنازير، الدجاج، الأرانب، وبعض الخراف. لكن لم يدرّ عليه أي منها بمحاصيل مدهشة، لا شيء قد يكسبه جوائز في المعارض الزراعية. لم يكن هو من غرس اليقطينة الضَّخمة، الفائزة بميدالية فضية عام 1937، ولم تكن الخيارة التي تزن 3.7 كغ من محصول بستانه.

ومع ذلك، تسنَّى له أن يعيش على منتجات الأرض، بل أن يحقق ربحًا معتدلًا، وجده ملائمًا. إذا كانت بعض السعادة لا تزال مخبأة من أجله بعد كل ما عاناه، لم يرغب في نيلها من خلال المال، بل عبر أمور صغيرة؛ مثل مشاهدة نمو البذار. كانت حياته هادئة؛يستيقظ في الصباح الباكر، ويحتسي مشروب المتَّة المرة غير المحلاة، الشيماراو مع أجيره إنجون[3]، فيما بعد، يعملان معًا. بداية وجد صعوبة في التعود على الكدح الشَّاق، لكن مع مرور الوقت، اكتسب جسده صلابة واشتد عوده كأي واحد من مستوطني المنطقة. ومثلهم، تعلم كيف يتحرَّى السَّماء لمعرفة حال الطقس، الجهة التي سيأتي منها المطر، ويشم رائحته من البعيد.

---

(3) Injun: الهندي الأحمر.

في الأمسيات، بعد العشاء الذي يحضِّره ماكس بنفسه، كما يحضر جميع وجباته، يستبدل ملابسه بأخرى نظيفة ويعقد ربطة عنقه. يجلس بعد ذلك ويستمع إلى تسجيلات طلبها من بورتو آليغري، يردد الوادي بجميع أرجائه صدى نغمات السّمفونية التاسعة لبتهوفن. تلقى من بورتو آليغري أيضًا كتبًا بالبرتغالية والألمانية. اشتهرت مكتبته بين المستوطنين الذين أشاروا إليه باسم «البروفسور». كانت علاقته معهم ودية لكنها متباعدة. في الأصل، فكر أن حياته ستظل دومًا متوحدة، لكن شيئًا فشيئًا بدأ يشعر بالحاجة إلى بناء علاقة مع أناس مثقفين، يمكنه معهم أن يناقش مواضيع علمية وأدبية. ذهب أحيانًا إلى كاشياس دو سول، لحضور محاضرة أو حفلة موسيقية. التقى في تلك المدينة لأول مرة بطبيب متقاعد من أصولٍ نمساوية، يعيش مع زوجته في كانيلا وهي بلدة صغيرة مجاورة. دعي إلى زيارتهما، تردَّد ماكس، لكنه قبل الدَّعوة في نهاية الأمر. ثم أصبح زائرًا منتظمًا لمنزل الزوجين.

كان الطبيب رودولف رجلًا واسع المعرفة بشكلٍ استثنائي. مارس مهنة الطب لوقت طويل في منطقة نهر

الأورغواي الأعلى، وهناك قام بكل شيء: الطب العام والجراحة والتوليد. مع ذلك تمنى أن يتخصص في الطب النفسي. كان محللًا نفسيًا ذاتي التعلم، ضليعًا في مدرسة الطبيب فرويد الذي عمل والده معه في ڤيينا. اهتمَّ بروايات ماكس عن أبحاث البروفسور كونز، وحكى لماكس عن تجاربه مع الهنود البرازيليين. كان يجمع جميع أفراد القبيلة معًا ويروي لهم القصص. كانت إحدى هذه القصص عن شاب صنائعي يدعي «الأنا»، صنع دمى رائعة، ومُعَذِّبَيْهِ: «الهُوَ»؛ قزم بذيء اللسان مشعر (مخلوق يشبه بوجه من الوجوه الكوروبيرا، بعبع الأطفال في الغابات البرازيلية -هندي خرافي قدماه متجهتان إلى الخلف) و»الأنا الأعلى»؛ سيد ارستقراطي متسلِّط. يستلقي الأنا بعد يوم من العمل المرهق، لكن النوم لا يوافيه: حينئذٍ يأتي الهُوَ من القبو ويبدأ الرقص حول مهد الأنا، مؤديًا حركات بذيئة بوجهه. ينهض الأنا ويتبع القزم في الحقول إلى أن يصلا إلى ما بدا مثل مدخل جحر حيوان المُدرَّع، لكنه في الواقع مدخل قصر الجنيَّة مورغانا الرائع تحت الأرض. وفيما هو واقف في الردهات الضخمة المضاءة بالمشاعل، يعجب الأنا لرؤية النساء الشقراوات الشَّابات اللواتي كنَّ يرقصن

عاريات. يمددن أذرعهنَّ نحوه، لكن فيما كان الشاب على وشك أن يرمي بنفسه عليهن، يأتي الأنا الأعلى، في معطفه الطويل وقبعته، شفتاه عبارة عن خط رفيع. تتلاشى الراقصات عندما يوعز بعصاه فضية الرأس. حينها يلتفت إلى الأنا المسكين ويكلِّفه بمهمة، أن يكرر بصوت رتيب: أنت سوف لن ترتكب إثمًا، أنت سوف لن ترتكب إثمًا. تنتهي القصة دومًا نهاية تفاؤلية مقصودة، ينجح الأنا في تحرير نفسه من مُعذِّبَيْه ويتزوج الجنية مورغانا.

أفرحت مثل هذه القصص الهنود الذين فضَّلوها على قصص الإنجيل، أو القصص عن توبيا -الإله المسيحي (كانت كلمة توبيا تعني «الرعد» في اللغة الهندية التوبية[4] إلى أن بدأت البعثات اليسوعية باستعمالها للإشارة إلى الإله المسيحي) نحت نحَّات هندي مبدع في الخشب كل من شخصيات الأنا، والهُوَ، والأنا الأعلى، ما عزز الأثر العلاجي للقصص.

ابتُلي الشُّبان الهنود بحزن لا حدَّ له، وداوت الفتيات

(4) إحدى لغات السكان الأصليين لأميركا الجنوبية.

الهنديات الهستيريات أنفسهن بتقديم قرابين استرضائية لتلك الأصنام.

استمع ماكس إلى تلك الروايات باهتمام ممزوج بانزعاج إلى حد ما. عدَّ نفسه أيضًا نوعًا من «أنا»، وظل يتقلب ويتخبط في الفراش ليلًا أيضًا، غير قادر على الخلود إلى النَّوم، تنخسه الرغبات الجنسية. بين الحين والآخر كانت تأتي مارغريت، راقصة ملهى في كاشياس دو سول إلى بيته. فتاة شقراء مرحة، ذكرته بوجه من الوجوه بفريدا. بأيَّة حال، كان معظم الوقت في حاجة مريعة إلى امرأة -مصدر آخر للّوعة كما لو أنه لم يكن لديه الآن ما يكفيه منها.

ثم أصيب بوعكة.

ألمَّت به حمَّى خطيرة مجهولة السَّبب، بحسب ما قال الطبيب رودلف. توجَّب نقله إلى المستشفى، وأخضع إلى عدد كبير من الفحوصات، لم يُكشف بها على أي علّة، لكن حالته ظلَّت تسوء يومًا بعد يوم. كان يتحدث هاذيًا عن والديه، هارالد، الجغور. بعد أن تخلَّى الأطبَّاء عنه عادِّين

حالته مستعصية، أخذت حالته تتحسن. انكسرت حدَّة الحمى، عاد له صفاء ذهنه ثانية، لكنه كان ضعيفًا جدًا. واهنًا للغاية حتى أنه لم يستطع الكلام إلا بصعوبة. أراد الذَّهاب إلى البيت مهما كلف الثمن. اقترح أجيره الصامت إنجون الإتيان بشخص ليقوم بأعمال الطهو وتدبير المنزل. وأخذ ابنة أخيه إلى بيت ماكس.

عندما رأى هذه الفتاة للمرة الأولى، وتدعى جاسي، لم يبالِ ماكس بها كثيرًا -في الواقع، لم يكن في ظرف يمكنه من ملاحظتها- مع ذلك، فيما هو يتماثل للشفاء من مرضه، بدأ اهتمامه بها يتنامى.

كانت في عمر التاسعة عشرة. هندية الشكل، بطبيعة الحال، لكن جميلة إلى أقصى حد، تشبه المرأة الهندية التي وصفها جوزيه دي آلينكار في رواياته. أعجب بها ماكس، بسلوكها الأخرق قليلًا، بالأغاني الخفيفة التي تدندنها فيما هي تحضِّر الطعام. قبَّلها في المطبخ للمرة الأولى، في الليلة التالية، نامت معه، ومنذ ذلك الحين لم تعد إلى منزلها.

أولًا شعر ماكس ببعض الخوف -ألن يأتي أقارب جاسي

لاقتحام المنزل، صارخين: أعد الفتاة إلينا أيها المنحل؟ لكن لا. لم يحدث شيء من هذا القبيل. كان والدا جاسي متوفين وبدا قريبها الأدنى إنجون غير مبال، هذا إذا لم يكن مسرورًا بما يجري؛ في النهاية، لن تكون جاسي في وضع أفضل من هذا، منح إنجون لنفسه بعض المزايا، كان يعمل أقل ومرة كل حين يفتح زجاجة نبيذ من الخزانة كتعويض عن دوره كوسيط في العلاقة.

أحبَّها ماكس.

لم يكن من السَّهل عليه إدراك ذلك، من ناحية لأن الخوف كان يحاصره، ومن ناحية أخرى لأنه أصبح شخصًا خشنًا، لكن أيضًا، لأنه لم يكن قد تخلَّى تمامًا عن فكرة العودة إلى ألمانيا، ليتزوج هناك من شابة لم يلتقِ بها بعد، شابة كانت في أحلامه شديدة الاختلاف عن جاسي، أكثر شبهًا من ابنة صاحبة النُّزل. لكل هذه الأسباب، لم يقع في حبها من أول نظرة، كما يحدث في الأفلام. بل أينعت مشاعره تجاهها تدريجيًا. على مراحل: هي، شاردة الذهن عند النافذة، تنظر إلى تهاطل المطر في الخارج، هي، تدندن لنفسها وهي ترتب الزهور في المزهرية، هي تبكي

بصمت يعلم الله لأي سبب... حنوًا أولًا، ثم سرعان ما أعقبه الحب. كان ماكس واثقًا من أنه حب. لم يعد بمقدوره العيش دونها. وتوقف عن التفكير بألمانيا، أو أنه فكر بها لكن لمامًا. كانت جاسي الآن كل ما يهتم له، أمضيا معظم وقتهما معًا: في البستان، أو يتجولان في الحقول، أو ينظران إلى «سيرّو فيرجي» يغشاها السَّديم، أو يمكثان في البيت عند الفرن الحار، حيث كانت تخبز البطاطا الحلوة. ابتسما أكثر مما تحدثا. وجدت لكنته الثقيلة مضحكة، لكنها كانت خجلة أيضًا من الطريقة التي تحدَّثت بها: لا أعرف كيف أتحدث مثل بروفسور، كما تفعل أنت. كان ماكس بالنسبة لها بروفسورًا، لا نقاش في ذلك، كان رجلًا يعرف أمورًا كثيرة معقدة عصيَّة على استيعابها. مثل ألمانيا، أو النازية التي لم تتمكن من استبطانها. لكنها أحبت قصته عن الجغوَر، وضحكت بحماسة تامة لدى سماع ما عاناه ماكس على متن الزورق من محن، ولم يخطر لها مرة أن الأمر برمته يمكن أن يكون محض هذيان أو تخيل. سمعت مرة عن حالة مشابهة، ذهب صياد سمك على متن قاربه، حيث وجد أفعى هائلة. مشلولًا بالرعب لم يتمكن من إبعاد عينيه عن الأفعى وانجرف مركبه يحمله التَّيار عدَّة كيلومترات

إلى أن وصل إلى البر، عندها اختفت الأفعى وسط الخضرة عند ضفة النهر.

ومارسا الحب. في البداية لم يكن جيدًا دومًا -هي خرقاء بطريقة ما، مع ذلك تدريجيًا، خبرا بعضهما البعض، وأصبحت المضاجعة أفضل مع كل مرة.

عندما اكتشفت جاسي بأنها حُبلى، لم يتردد ماكس لحظة واحدة: ذهب إلى مكتب تسجيل عقود الزواج وحدد موعدًا لزواجهما. لم ينوِ إقامة حفلة (لن تكون ضرورية، وما الحاجة إليها ووالديه بعيدين)، لكنه أراد الاحتفال لإضفاء بعض الأهمية. لذا طلب موافقة الطبيب رودُلف وزوجته ليكونا بمثابة الإشبين والإشبينة. مأخوذًا على حين غرَّة، وافق الطبيب، لكن عندما ذهب ماكس إلى منزله بعد بضعة أيام لينظر في أمر بعض الترتيبات النهائية لاذ الطبيب بالصمت. لا، لا يعرف إذا كان في وسعه حضور الزفاف، زوجته متوعكة.

قال ماكس متفاجئًا: «لكني تحدث إليها للتو».

تردد الطبيب رودلف.

قال أخيرًا: «اسمع ماكس، من الأفضل أن أصارحك. لا ترغب زوجتي أن تجيء إلى هنا بعد الآن. آمل أن تتفهم. بعض الناس لديهم مشاكل مع... أنت تعلم. لا يمكنني فعل شيء، لا يمكنها إلا أن تشعر بالطريقة التي تشعر بها».

لم يستوعب ماكس. ماذا اقترفت؟ كان على وشك أن يسأل، لكن حينها خطر له أن الأمر لا يتعلق به، كانت جاسي هي المشكلة. الفتاة الهندية ذات البشرة الدَّاكنة.

نظر ماكس إلى الطبيب جالسًا في غرفة جلوسه المريحة، كان يدقُّ بأصابعه بعصبية على مسندي الكرسي مسبلًا جفنيه. (فضول مفاجئ: هل حكى الطبيب رودلف يومًا لزوجته عن حلم الأنا؟ لا. ربما لا) نهض ماكس وغادر.

ولدت ابنته هيلدغارد (اختصر اسمها لاحقًا إلى هيلدا) في شهر آب عام 1939. بعد شهر اندلعت الحرب. عانى ماكس من قلق عارم ردحًا من الزمن، من ناحية، أمِل بهزيمة النازية، من ناحية أخرى، خشي على سلامة والديه. كان

يتتبع أخبار الجبهة يوميًا وينظر إلى خريطة أوربا أمامه. اهتمَّت جاسي: زوجها لا ينام جيدًا، يتحدث في نومه. إلا أن الطفلة تطلبت رعايتها الكاملة وهكذا كلّ ما كان في وسعها فعله هو أن تطلب من ماكس أن يرتاح، وأن تقول لعلَّ الأمور ليست بالسوء الذي تبدو عليه.

ابنته. آه، نعم، ابنته. بدأ ماكس تدريجيًا ينسى أمر الحرب وكل شيء آخر، لأن عينيه كانتا فقط من أجل ابنته هيلدا. لم يكتب في يومياته إلا عنها: اليوم شربت هيلدا العصير للمرة الأولى، اليوم ضحكت، اليوم ظهر أول سنٍ من أسنانها، اليوم قالت ماما، اليوم خطت خطوتها الأولى، اليوم قالت شيئًا مضحكًا (كان هناك الكثير من الأمور المضحكة: ملأت صفحات وصفحات). وهكذا، مر الوقت على غفلة من ماكس. مع ذلك، أصبح الصَّلع المبكِّر الذي ورثه عن والده أكثر وضوحًا. عام 1940 توجَّب خلع عدد من أسنانه، كان عام 1941 طريح الفراش مصابًا بآلام روماتيزمية عدة أيام. قال الطبيب رودلف: «ماذا تتوقع، ذات يوم ستكون هرِمًا ومريضًا، هذا محتوم».

لم يصدق ماكس حقًا بأن هذا سيحدث له، شعر بأنه

بخير؛ رجل لفحته الشمس. اعتاد على الخشونة.

عام 1942 شنَّت البرازيل الحرب على ألمانيا. قاد ماكس شاحنته القديمة بعد بضعة أسابيع من الإعلان عنها، إلى كاشياس دو سول، حيث يقوم بإيصال بعض الطلبيات. ركن أمام متجر بقالة، عندما ترجل من الشاحنة، نظر إليه بعض الشبان المتسكِّعين في الأنحاء بطريقة غريبة. دخل ماكس المتجر متجاهلًا إياهم. عندما خرج بعد نصف ساعة، رأى ذلك الصَّليب الأسود المعقوف مرسوم على شاحنته. لم يكن الشبان مرئيين في أي مكان.

تلوَّى ماكس غيظًا. ذهب إلى وسط الشارع.

«أنا لست نازيًا!» ظل يصرخ. «أنا أكره النَّازية وأكره أيًا من فعل هذا بشاحنتي. أرني وجهك هنا إذا كنت تجرؤ!».

لم يأتِ أحد. أخيرًا، ركب ماكس شاحنته وانطلق. منذ الآن فصاعدًا لن يذهب إلى البلدة، على أصحاب المتاجر المجيء إلى مزرعته لشراء منتجاته. بالإضافة إلى ذلك، توقَّف عن الاستماع إلى المذياع وقراءة الصحف.

علم ذات يوم أن الحرب حطت أوزارها. أول ما فكَّر به كان والديه: الآن سيكون في وسعه زيارتهما. وفي الحال، الأسئلة: هل لا يزالان على قيد الحياة؟ ما الذي حلَّ بهما؟

قرر الذهاب إلى ألمانيا. شجعته زوجته قائلة: «اذهب ماكس، اذهب وزر أنسباءك».

«هل ستجلب لي هدية؟» سألت هيلدا.

ابتسم ماكس مفعمًا بالعاطفة. سيعود إلى ألمانيا، نعم، لكن فقط كزائر. أهله هنا في البرازيل: جاسي وابنته. كانتا الوحيدتين اللتين يهتم لهما.

سحب ودائعه المصرفية، اشترى بطاقة إلى ألمانيا وانطلق في رحلته. لم يكن من السَّهل دخول برلين، كان عليه أن يتحدث إلى سلطات الاحتلال، وتقديم وثائق. أخيرًا زود بجواز مرور سمح له بدخول المدينة.

عاد ماكس إلى برلين بتأثر عميق وقدر كبير من الحزن. لم يبق شيء من المدينة التي عرفها أيام طفولته. سويت

المباني بالأرض، تجوَّل الناس في الشوارع كالمسرنمين. جو كابوسي. كان متجر والده -المكان الأول الذي ذهب إليه- كومة كبيرة من الأنقاض. متلمسًا طريقه بين الحطام رأى شيئًا يلمع في الشمس. كانت عينًا زجاجية. عين النِّمر المحنَّط. لفَّها بعناية في منديله ووضعها في جيبه.

منزله القديم لم يعد موجودًا أيضًا، دُمِّر تحت القصف. وهو واقف هناك ينظر إلى الخرائب، اقتربت منه امرأة لها مشية عرجاء وفي عينيها نظرة مضطربة قليلًا، طلبت سيجارة. عرف ماكس فيها إحدى الجارات.

«ألا تتذكرينني، سيدة هيرتا؟»

نظرت إليه مذعورةً. بعد برهة افترَّ وجهها عن ابتسامة.

«إنه ماكس! ماكس الصغير!»

عانقته باكية.

«يا لها من مصيبة ماكس. يا لها من مصيبة رهيبة. ماكس. لماذا فعلنا كل هذا ماكس؟».

صحبته إلى البيت، أو إلى ما بقي منه؛ غرفة واحدة فقط وقطعة من الخيش تسد مسد الباب. أجلسته، قدمت له من قليل ما تملك؛ الشَّاي، وبعض البسكويت الجاف. كان ماكس متلهفًا للسؤال عن مصير والديه، لكنها تداركت أسئلته.

«توفيت والدتك. ماكس. توفيَّت بعيد رحيلك. وأودع والدك في مصحَّة، ماكس. أصابه الجنون. عدد كبير من الناس أصيبوا بالجنون... عدد هائل».

فيما هو يهمُّ بالمغادرة، أعطاها ماكس سجائره، ثم توجَّه صوب المصحَّة التي صادف أنها في الجوار. كانت مكانًا بائسًا، مجموعة من الأبنية آخذة بالانهيار. فيما بينها كان المرضى يتجولون بأسمال بالية. قدم ماكس نفسه إلى ممرضة نظرت إليه صعودًا ونزولًا قبل أن تقوده إلى أحد العنابر.

لم يتعرف ماكس إلى أبيه. كان الرجل الضَّخم المزهو بنفسه مختزلًا الآن إلى رجل مسن نحيل، أصلع، وبلا أسنان، جلس يتمتم بكلمات غامضة، عيناه مسمّرتان إلى

الأرض. جلس ماكس إلى جانبه، عانقه ولاطف وجهه المغضَّن.

قال بصوت خافت: «هذا أنا أبي، ماكس ابنك».

لم يجب هانز.

قالت الممرضة: «لا فائدة، إنه بليد».

دون أن يقول أي شيء، نهض ماكس. وفيما هو يهم بالمغادرة، تمسَّك به والده وجعله ينثني.

همس في أذن ماكس: «كل هذا، سيدي الجنرال، يتعلَّق باليهود. أنا خير من يعلم، فقد كنت أعمل في تجارة الفراء. اعمل بنصيحتي، وأطلق سراح النمور».

قبَّله ماكس على وجهه. رافقته الممرضة إلى الباب. قال لها إنه سوف يرسل إلى والده راتبًا شهريًا وأعطاها عنوانه في البرازيل. أخيرًا، منحها بقشيشًا مجزيًا فافتر ثغرها عن ابتسامة وارتسمت على وجهها فجأة علائم السرور: «لا تقلق سيِّد ماكس، سوف نعتني بوالدك جيدًا. ثم أخفضت

صوتها: أخشى أن المسكين لن يصمد طويلًا... لكن حتى يذهب إلى مثواه الأخير، سنقدم له كل راحة ممكنة. وسوف نعلمك برحيله».

صافح ماكس اليد الممدودة نحوه وغادر.

سار في شوارع برلين. وصل إلى حانةٍ كان يرتادها مع والده لشرب البيرة، لقد نجت من الدَّمار وتم افتتاحها للعمل. دخل ماكس ووجد له مقعدًا. كان الزَّبون الوحيد هناك. خدمه رجل كئيب مسن.

«ليس لدينا سوى الشاي، سيدي. الشاي والمياه المعدنية».

طلب ماكس الشاي. وفيما هو جالس هناك، يرتشف الشاي ببطء، لاحظ أن امرأة في الشارع توقفت عند الباب تنظر إليه بانتباه. نهض على قدميه عندما جاءت تركض إلى الحانة.

«ماكس!»

كانت فريدا: هذه المرأة السَّمينة القبيحة، هذه المرأة المسنة بثيابها الرثَّة، فريدا التي كان يقبلها في المخزن وسط الفراء. تعانقا طويلًا، بكت بينما نظر النادل دون اكتراث. تفلته للحظة وتقول: «ماكس! لقد مرَّ وقت طويل. ماكس!» ثم تعانقه ثانية. جلسا أخيرًا. قدَّم لها ماكس الشاي، ثم بعد لحظة تردد، سألها إذا كانت تود أن تأكل شيئًا. نعم تريد. جلب النادل لهما ما كان متوفرًا: عجة البيض، وبعض الخبز. تناولتهما بشهية نهمة. تحدَّثت طويلًا بفم ملآن، روت له عن سنوات الحرب، كانت سنينًا رهيبة فيها من الشدائد ما لا يعقل. لاحظ ماكس الصورة الباهتة قليلًا على الرصيعة التي تحيط بعنقها.

« وماذا عن زوجك؟»، سأل.

هزت كتفيها.

«ليس لدي فكرة. اختفى أثناء الحرب. أظن أنه هرب... هرب كثيرون، لكني لا أهتم. أنت تعلم، ماكس، لم أحبه أبدًا».

ثم أمسكت يده بين يديها، منحنية إلى الأمام خداها ملوثان بالطعام الذي تناولته.

«لقد أحببتك أكثر ماكس، تلك الأصائل في المخزن، هل تتذكرها؟».

أطلقت ضحكة صغيرة. ثم تحوَّلت إلى الجدِّية، نظرت بثبات نحوه، شفتاها مفترقتان، توسع منخراها فجأة بالرغبة.

«أوه ماكس، لقد مر وقت طويل... هل تود أن...؟»

تردَّدَ -فقط للحظة وجيزة- لكنها لاحظت، وكان الأمر مذلّا بما يكفي. أحجمت.

«أوه، لا تهتم. بأية حال ليس هناك وقت، يجب أن أنطلق الآن، لدي موعد».

نهضت ومدت يدًا متصلبة، حاول أن يطيل بقاءها في يده لكنها لم تسمح له.

«آمل أن نلتقي مصادفة مرة أخرى»، قالت، ومضت.

راقبها ماكس تقطع الشارع مسرعة. ثم اختفت عند مفترق الطريق.

عاد ماكس إلى البرازيل على متن سفينة، بنفس الطريقة التي سافر بها إلى ألمانيا. كانت سفينة ركاب كبيرة، بكل المزايا الممكنة. كان لديه مقصورة محترمة في الدَّرجة السياحية. لم يكن هناك حيوانات تعوي وبدا خطر غرق السفينة بعيدًا. كانت السَّفينة مجهَّزة بكل أنواع وسائل السلامة، ومنح القبطان الثقة للمسافرين. إذا لم يتمكن في الليل من النَّوم جيدًا، إذا استيقظ مجفلًا يتصبب عرقًا باردًا، كان ربما لأنه في وسط المحيط، بعيدًا جدًا عن البيت، بعيدًا جدًا عن زوجته وابنته، بعيدًا عن سريره الذي اعتاد عليه. سوف لن أسافر ثانية، قرر. لا إلى ألمانيا ولا إلى أيّ مكان آخر.

استأنف ماكس أعماله المعتادة في المزرعة. يزرع، يحصد، يعتني بالحيوانات، يقرأ في المساءات ويستمع إلى الموسيقى. ظلت جاسي تشتكي: «أنت لا تأخذني أبدًا إلى السينما. ماكس. لقد ذهبت مرتين فقط إلى السينما طوال حياتي»!

ظن ماكس بأنها تريد طفلًا آخر. بأية حال انتهى حملها بالإجهاض، توجب نقل جاسي إلى المستشفى بسبب النزيف. أودع ماكس هيلدا في رعاية الخادم ومكث مع زوجته في المستشفى لما يقارب الشهر. عند العودة إلى البيت تفاجأ لرؤية منزل يبنى على أعلى قمَّة في سيرّو فيرجي. كان مستغربًا بناء منزل في هذا المكان لأنه كان بعيد المنال تقريبًا، ومن إلقاء النظر إليه بدا أنه سيكون قصرًا فخمًا. هل تعلم من يبنيه؟ سأل ماكس إنجون، لكن أجيره لم يكن يعرف. أمسك ماكس بمنظاره ومن وقتها شاهد أعمال البناء.

أولًا رأى العمال، رئيس العمال، المهندس، وقع بصره ذات يوم على شخص قد يكون المالك. كان مديرًا ظهره لماكس، رجل متقدم في العمر، أنيق الملبس، شكله أوربي بالتأكيد. استدار الرجل وحاول ماكس التركيز على وجهه. حالما رآه بوضوح، شعر كما لو أن أحدًا ضربه على صدره، وكأنَّ قلبه توقف عن الخفقان. عرف ذلك الوجه، لقد رآه من قبل، وليس منذ زمن بعيد. في رصيعة فريدا: لقد كان زوجها. وعندما كان ماكس يسوِّي منظاره محاولًا أن ينظر

جيدًا إلى الرجل. ركب سيارته، قاد مسرعًا، ورحل.

منذ ذلك اليوم انقلب حال ماكس. قلقت عليه زوجته، وهي لا تزال تتماثل للشفاء: العمل لم يعد يغريه، فقد شهيته، نام قليلًا وظلَّ يتـأوه في نومه. حتى الصغيرة هيلدا لاحظت أن شيئًا يحدث فسألت: ما خطب بابا؟ لكن جاسي لم تكن تملك جوابًا. ظلَّت تطلب من زوجها أن يذهب إلى الطبيب، ليؤكد ماكس لها في كل مرة إنه بخير وليس بحاجة إلى طبيب، لكن جاسي عرفت أن هذا ليس صحيحًا، ولتزيد المسائل سوءًا ظنَّت أنها هي سبب المشكلة فتئن قائلة: «أنت لم تعد تحبني ماكس، لقد سئمت مني لأني لست بيضاء، لأني لست من عرقك، أنت تريد شقراء ماكس، أليس كذلك؟».

فيغادر ماكس المنزل منزعجًا.

يتجوَّل في الحقول، تطارده أشباح قديمة، مهجوسًا بالوجه الذي رآه عبر المنظار. يفكِّر باستمرار في هذه المسألة بقنوط: لماذا لا تدعه هذه الذِّكريات اللعينة وشأنه؟ لقد بدأ حياة جديدة، هو لا يريد أن يتذكر الماضي. ماذا يهم

لو أن زوج فريدا لا يزال حيًا، إذا كان يعيش في البرازيل، وليس بعيدًا عن مزرعته كما شاء الحظ أن يكون؟

لكنه يهم، نعم. عرف ماكس أنه يهم. يجب أن يكتشف الحقيقة، أن يذهب إلى جحر الوحش لمواجهته في حصنه. لكن كيف؟ وتحت أي ذريعة؟

بينما كان لا يزال يتصارع مع هذه الأسئلة، انتهى بناء المنزل وانتقل الرجل إليه. فيما يبدو عاش بمفرده وليس لديه عائلة، لكن كان هناك شخصان آخران يعيشان في المنزل: رجل، ربما خادم، وامرأة ترتدي مئزرًا دومًا؛ الطاهية. اعتنيا بالمنزل في غياب صاحبه المتكرر ما جعل من الصَّعب على ماكس أن يخطط لزيارة. إلا أنه عرف أن الرجل كان يتواجد في البيت دومًا نهاية الأسبوع. لهذا انطلق ماكس يوم السبت في شاحنته.

كان الوصول إلى العقار يتم من خلال طريق ضيقة مفروشة بالحصى، بلا شك أقامها مالك المنزل لأن منزله كان المسكن الوحيد في المنطقة. توقَّف ماكس أمام بوابة كبيرة حديدية مقفلة. لافتة كتب عليها: «ملكية خاصة.

احترس. كلاب شرسة». وحقًا كان هناك أربعة كلاب ضخمة من نوع درواس تنبح بضراوة.

ضغط ماكس على بوق سيارته. ظهر الخادم.

«ما الأمر؟» سأل مرتابًا.

«أنا مالك المزرعة في الأسفل»، شرح ماكس. «جئت لأزور مالك المنزل».

أضاف بعد تردد لفترة بابتسامة متصنعة: «لأرحب به ترحيبًا وديًا. إنها عادة متبعة هنا في عنق الغابة هذا».

التفت الخادم دون أن يقول كلمة. عاد بعد فترة. أبعد الكلاب وفتح البوابة.

«رافقني من فضلك».

أرشد ماكس إلى المنزل، لكن قبل أن يدخله، قال الخادم: «حذاؤك. نظفه من فضلك بممسحة الأرجل».

انصاع ماكس لكن بنفور. أدخله الخادم حينها إلى مكتب أنيق. كان الأثاث المصنوع محليًا من دون تكلُّف، ومتواضعة أيضًا السَّجادات الصوفية، لكن كان يوجد عدد كبير من اللوحات والمنحوتات، منافض السجائر من الكريستال، والكتب على الرُّفوف مجلَّدة بسخاء. نظر ماكس إلى العناوين: روايات، كتب في الفلسفة، لا شيء مثير للشُّبهات.

«صباح الخير! ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك؟».

وها هو، الرجل الذي كان ماكس يراقبه من خلال منظاره، منفرج الأسارير. يرتدي ثيابًا غير رسمية لكن أنيقة، سترة من قماش التُّويْد، سروال من الصُّوف النَّاعم، وشاح حريري حول عنقه. أليفًا مبهجًا وليس فيه شبه من صورة الرَّجل على رصيعة فريدا. لكن فكر ماكس حينها: الوقت يمر. حتى بالنسبة إلى وغد مثل هذا الرجل، الوقت يمرّ. تصاعد الغضب في صدر ماكس، وكرهًا منه شدَّ على قبضتيه. لكنه تمكن من استعادة زمام نفسه وبصعوبة قدَّم نفسه قائلًا إنه أتى للقيام بزيارة ودية لجاره.

قال الرجل بلهجة برتغالية ثقيلة: «في هذه الحال، مرحبًا بك في بيتي». بدا خجلًا بالفعل من لهجته، وبعد بعض التردد سأل إذا كان في وسعه مواصلة المحادثة بالألمانية. تردد ماكس أيضًا لكنه رد بالإيجاب. حينها قدَّم الرجل نفسه وكان يدعى جورج باكهاوز، تاجر متقاعد من برلين، يعيش الآن على عائدات استثماراته.

«قررت أن أقضي آخر أيامي في البرازيل». ابتسامة محزنة. «لقد سئمت من أوربا، من الحرب والدمار».

يا لصفاقة هذا الرجل، فكَّر ماكس. يا له من رجل وقح، قاتل خائن. لكنه محتال حقيقي، أيضًا. كان على ماكس أن يعترف إنه لعب دور المواطن العالمي على نحو رائع جدًا.

«شراب؟»

لم يجب ماكس. ملأ الرجل كأسين صغيرين وقدَّم أحدَّهما لماكس، لم تفارق الابتسامة وجهه أبدًا.

رمى ماكس الكأس على الأرض في نوبة غضب

مفاجئ. ارتد مضيفه مجفلًا.

«كفاك! كفاك من هذا الهراء!».

وقف الرجل مذعورًا ينظر إلى ماكس.

«ألا تعرف من أكون؟» نعر ماكس.

«ماكس! ماكس شميت! حبيب زوجتك فريدا. حبيب الزوجة التي هجرتها! صديق هارالد، هارالد الذي بلغت عنه الشرطة! الذي قتل نفسه بسببك، أيها الأحمق الحقير!».

«لا أعرف عم تتحدث»، قال الرَّجل غاضبًا. «ومن فضلك تحكَّم في نفسك، أو سيتوجب علي أن أطلب منك مغادرة منزلي».

مد الخادم رأسه من الباب.

«هل تحتاج أي شيء سيد جورج؟».

«لا، شكرًا. سأناديك إذا احتجت لشيء».

أغلق الباب. التفت باكهاوز نحو ماكس.

«هذا بغيض للغاية سيد ماكس. لكني أظن أن في وسعي تفهُّم غضبك: لا بد أن الأمر اختلط عليك بيني وبين شخص آخر. نحن الذين غادرنا ألمانيا...».

قاطعه ماكس.

«اختلط عليّ الأمر كالجحيم». كانت نبرة صوته خفيضة لكن مهددة. «ولا أعتزم ترك الأمور على حالها. قريبًا أنت وأنا سنصفي حساباتنا. وداعًا».

خرج ماكس دون أن ينتظر الجواب. صفق الباب خلفه. صعد إلى شاحنته تحت أنظار الخادم اليقظة والمرتابة، حرفها بوحشية على أحواض الزهور في المنزل.

صرخ الخادم: «انتبه! أنت تدمِّر النَّباتات!»

وابتعد، الآن وقد عرف ما عليه أن يفعله. سوف يكرِّس نفسه لفضح هذا النازي، ولن يرتاح حتى يتم توقيفه والحكم عليه.

ذهب إلى بورتو آليغري وتوجَّه مباشرة إلى مخفر الشُّرطة.

قال لقائد الشرطة الذي استقبله في مكتبه: «أريد أن أبلغ عن أمر جلل».

أصغى الرجل إليه بانتباه ودوَّن ملاحظات. قاطع ماكس بعد فترة، وهو في خضم قصته المعقدة.

«هل لديك أي دليل لتثبت اتهامك؟».

«دليل؟» غضَّن ماكس جبهته. «من يحتاج إلى دليل؟» أنا أقول لك كل ما حدث! هذا الرجل نازي! محارب نازي! ألا تفي كلمة شرف مني بالغرض؟».

ابتسم قائد الشرطة.

«حسنًا، ليس هذا هو الحال. كما ترى، أريد وقائع مادية. وثائق، صور...». جلس ماكس يحدق به مربكًا.

«لا»، همس. «لا أملك أيًا منها». فجأة بدا له وجه قائد

الشُّرطة مألوفًا.

«أظن أني تعرفت إليك»، قال، «لكني لا أستطيع أن أحدِّد من تكون».

كان قائد الشرطة أيضًا ينظر إلى ماكس باستغراب.

«حسنًا، أظن أني أعرفك، أيضًا...».

أضاف بعد تفكير لفترة من الوقت: «ألست أنت من كنت تعيش في نُزل في فلوريثتا عام 1937 أو 1938؟»

بالتأكيد: كان الرجل في الزي الرسمي. الرجل الذي استعرض نفسه أمام المرآة. الآن بدا الأمر برمته منطقيًا بالنسبة لماكس: سوف لن يحقق قائد الشرطة أبدًا في شكوى ضد نازي. وعلاوة على ذلك: ربما يعرف هذين الرجلين بعضهما البعض، ربما كانا يتآمران. نهض ماكس فجأة وغادر.

مقتنعًا أنه سوف لن يصل إلى نتيجة عبر قنوات قانونية (للرجل علاقاته، هو ربما محصن جيدًا). قرر ماكس أن

يتَّبع طريقًا آخر، لكن أكثر خطورة. كتب مقالة ونشرها كإعلان مأجور في صحيفة كوريو دو بوفو (رأى نسخة منها في منزل جورج باكهاوز الدجال)، تحت عنوان عشُّ أفاعٍ في مناطقنا كثيرة التلال.

تبدأ المقالة: «على قمة سيرّو فيرجي، يوجد منزل جميل بُني حديثًا»، وتتابع على هذا المنوال، مختتمة بعبارة تفيد أن المنزل مخبأ لنازي ذو ماضٍ مشين.

نجح هذه المرة في النيل من جاره. في اليوم التَّالي لنشر مقالته في الصحيفة جاء خادم باكهاوز إلى منزله.

«أرسلني سيدي إلى هنا لأعلمك بأن تكفَّ عن هذا الهراء. هو لا يرغب في اتِّخاذ إجراء ضدك، لكن إذا كنت تصرّ سوف تندم».

صرخ ماكس: «اخرج من هنا!»

لكنه شعر الآن بالسّرور: نجح في استفزاز الوحش وأغواه للخروج من عرينه. عليه أن يغيظ النازي أكثر ويقوده

إلى ارتكاب حماقة ما.

«دعه وشأنه»، ناشدته جاسي التي شهدت المشهد مذعورة. «سوف تتورط في المشاكل مع هذا الرجل».

بأي حال لم يكن ماكس ينوي الاستسلام. ليس الآن وقد وضع خُطَّة. في تلك الليلة بالذات شنَّ هجومًا. ذهب إلى منزل سيرّو فيرجي، نجح في التَّقدم حتى الأراضي المحيطة به -كان عليه أولًا أن يسمم الكلاب- ومع مطلع النهار صعد إلى السطح حيث رفع علم النازية المصنوع على عجل من ملاءة رسم عليها الصليب المعقوف. ثم عاد إلى مزرعته ومن هناك راقب بالمنظار ورأى العلم يرفرف في الريح. وسيراه قطعًا كل من يصادف مروره على الطريق. سيكون مستحيلًا استنباط طريقة أفضل لإدانة الرجل. وفي الظَّاهر، ما إن تأخر الوقت في الأصيل حتى لاحظ جورج باكهاوز وجود العلم. كشَّر ماكس وهو يراقب الخادم المتعجرف يوازن نفسه على نحو متداعٍ على السطح وهو يحاول إزالة العلم.

لكن جاسي شعرت بالقلق: «يكفي هذا الآن ماكس،

لقد أخذت بثأرك».

مع ذلك كان ماكس يدبر الآن لشن غارته التالية. كان لديه فيض من الأفكار: يمكنه نشر الكراريس عن النازية، كتابة مسرحية، وتأليف الأغنيات. لم يكن لديه المجال لتنفيذ أي من هذه الخطط. في فجر اليوم التالي، استيقظ على صوت طرق عنيف على الباب. كان إنجون مذعورًا للغاية.

«تعال وانظر، سيدي!»

تبعه ماكس إلى أقفاص الأرانب.

ما رآه كان كافيًا ليثير فيه الغثيان: الأقفاص محطمة، الأرانب منهوشة للغاية، مبعثرة في أنحاء المكان، برك الدم على الأرض.

«إنه الكوجر»، قال إنجون.

كان يشير إلى قصة شاعت في المنطقة عن أن كوجر، نمر الكَوجر، أشرس القطط البرية البرازيلية، كان طليقًا

في سيرّو فيرجي بعد أن هرب من شاحنة كانت تقوده إلى حديقة حيوان خاصة في بورتو آليغري.

كوجر؟ لا. بالنسبة إلى ماكس هذا كان من فعل مخلوق أكثر خبثًا من أي قطٍّ بري. لكن إذا قصد جورج باكهاوز أن يرعبه بهذه الطريقة، فهو لن يوفق أبدًا. مهما قتل من أرانب.

أعاد ماكس نشر مقالته في كوريو دو بوفو ثم استعد لأي احتمال: تناوب هو، وإنجون، والشاب الذي عمل أيضًا لصالح ماكس على حراسة منزله ليلًا.

أعطى لكل واحد منهما سلاحًا وذخيرة وقال لهما أن يطلقا النار على أي شيء يتحرك.

«حتى لو كان ما يتحرك أناسًا، هل تسمعان؟»

فكر للحظة ثم أضاف: «لا سيما لو كانوا أشخاصًا».

في ليلته الأولى في الحراسة تذكر ماكس النمور التي اصطادها والده في الهند: لكن لم يكن متحمسًا بتاتًا لنصب هذا النوع من الكمين. أغضبه التفكير بالنازي الآن وقد قام

بالهجوم، مع ذلك، تحول النزاع بينهما إلى لعبة: قام ماكس بالخطوة الأخيرة، الآن كان دور جورج باكهاوز.

لكنه فيما يبدو لم يكن له علاقة بالحيوانات الميتة. واصلوا الحراسة منذ أسبوعين لكن لم يحدث شيء. بدأ إنجون يشتكي: كان مسنًا، ويستحيل عليه أن يمضي الليل دون نوم، هدد الشاب الذي عانى من التهاب القصبات بترك العمل، أما بالنسبة إلى جاسي، كانت تفتح النافذة منتصف الليل وتصرخ:

«تعال إلى السرير ماكس، يكفيك من هذا الهراء!»

لم يكن لدى ماكس من خيار إلا أن يتخلى عن دسيسته ويحافظ على يقظته. كان واثقًا مع ذلك أن باكهاوز سوف يهاجمه قريبًا. وقرر أن يغضبه: نشر مقالته للمرة الثالثة. ثم انتظر رد فعل جاره. ماذا سيكون الهدف هذه المرة؟ الدجاج؟ أحواض الخس؟

بعد بضعة أيام دُعي ماكس للمثول أمام المحكمة. رافقته جاسي إلى كاشياس دو سول. في قاعة المحكمة

نُصح بأن يوكل محاميًا. أقام جورج باكهاوز دعوى ضده على خلفية المقالات في الصحيفة.

خلال رحلة العودة إلى البيت لزم ماكس الصَّمت. كان يجترّ أفكار الانتقام، وفي نفس الوقت، أغارت عليه الهواجس. كان مقتنعًا بأنه يواجه خطرًا، عدوًا غير متنبئ به، أكثر مكرًا مما تخيَّل (حتى ذلك الحين تطابقت فكرته عن الرجل تمامًا مع وصف فريدا لزوجها، رجل كانت تسخر من ذكائه). سوف يحتاج الأمر إلى ما هو أكثر من مجرد سخريات غضوبة لهزيمة مثل هذا العدو الذي كان أكثر جسامة مما كان يظن.

ما أن وصل ماكس وجاسي إلى المزرعة حتى لاحظا وجود ثمَّت خطب: قميص إنجون مطروح على الأرض، ومن الباب الرئيسي للمنزل، كان الشَّاب يومئ بعصبية إليهما.

خرجا من الشاحنة وهرعا إلى المنزل، لاقاهما إنجون في منتصف الطريق.

«الكوجر، سيدي، هجم ثانية، حظ سيء سيدي!»

ثم عمد إلى إخبارهما كيف وجدوا هيلدا الصغيرة ممدَّدة فاقدة الوعي في الغابة، ممزقة الثياب، تكسو جسدها الجروح والخدوش. عند سماع هذا بدأت جاسي تصرخ. التقط ماكس ابنته وحملها إلى الشاحنة وقاد نحو المستشفى.

بقيا يقظين طوال الليل في غرفة انتظار المستشفى. جاء الطَّبيب في الصَّباح ليراهما وطلب منهما عدم القلق، كانت الفتاة بخير.

«كيف جرحت نفسها بهذا الشَّكل، هل كانت الأشواك؟»

«لا»، قال ماكس. «لا أظن أنها الأشواك».

سأل الطبيب بعد تردد إذا ما كانت الفتاة قد قالت أي شيء عن الحادثة.

«لا»، قال الطبيب، «لم تقل أي شيء».

الحمد لله، فكر ماكس. حمدًا الله لأنها لم تستطع التَّذكر.

ترك جاسي في المستشفى وعاد إلى البيت.

بدأ يعدُّ العدة اللازمة بهدوء منهجي. أولًا، كتب رسالة، لكن لم تكن موجهة إلى جاسي فهي لا تكاد تلم بالقراءة، بل إلى الطَّبيب رودلف طالبًا منه ألا يتفاجأ إزاء سلوكه، فهو يتصرف بهدوء، وفي كامل قواه العقلية، مقتنعًا أنه يؤدي واجبه. طلب من الطبيب مساعدة جاسي على ترتيب شؤونها، ثم شكره على كل شيء.

بعد أن وضع الرسالة في مغلَّف، ذهب ماكس إلى سقيفة العُدَد. وقف هناك مترددًا إلى حين: أمسك بمنجل، تفحصه، تغضن جبينه، ترتسم ابتسامة شاحبة على شفتيه، ثم وضعه جانبًا، نفس الأمر مع فأس، أخيرًا تخيَّر سكينًا كبيرة، أكبر السَّكاكين؛ سكين لتقطيع السمك لها شفرة بطول ثمانين سنتمترًا. صعد إلى شاحنته وانطلق، توجه إلى سيرّو فيرجي. توقَّف على مسافة خمسمائة متر من منزل عدوه. من هناك سوف يتابع سيرًا على قدميه.

لم تكن البَّوابة مقفلة. وما إن فتحها حتى سمع نباحًا. كان كلبًا دلماسيًا وحيدًا، بدلًا من كلاب الدرواس الأربع.

راح يركض ثم قفز على ماكس الذي شطبه بالسكين الكبيرة وهو لا يزال في الجو. سقط الحيوان على الأرض مهشَّم الجمجمة، كما لو أنَّ البرق ضربه. ندّت صرخة ثاقبة عن الطاهية التي كانت تراقب المشهد وهربت إلى الغابة. لم يكن الخادم مرئيًا، ربما كان في إجازة، أو ربما هرب هو أيضًا.

ألقى ماكس بنظرة على الكلب الميت. توجَّه إلى المنزل على غير عجل. كان الباب مفتوحًا. دخل والسِّكين في يده. لم يكن هناك أحد في المكتب، ولا في غرفة الجلوس. فتح بابًا يفضي إلى ممر طويل، عند نهايته وقف جورج باكهاوز.

كان يحمل بندقية، بطبيعة الحال. مشى ماكس نحوه، عيناه مثبتتان على يد الرجل الآخر. ليس بسبب السلاح، مع ذلك، بل بسبب أظافره. وعرف مما ميَّزه في الضوء الخافت أن الأظافر لم تكن طويلة، ولم تكن مدبَّبة. علاوة على عدم وجود دم عليها، لكنَّ ماكس عرف أن الدم يمكن إزالته بالماء. لا شيء شاذ في تلك اليد فيما عدا السلاح.

«توقَّف»، أمر الرجل بصوت مكتوم. عندما لم يذعن

ماكس لأمره قدح الزِّناد.

أصابته الرصاصة في كتفه الأيسر، والصَّدمة رمته على الأرض في الحال تقريبًا، استطاع أن ينهض وواصل السير غير مكترث بالألم وبالدم الذي كان ينزُّ على صدره. طلقة أخرى، وهذه المرة خدشت الرصاصة ذراعه اليسرى فقط، لكن مع ذلك، يا له من ألم رهيب. توقَّف ماكس عن السَّير للحظة، لكن فقط للحظة، قبل أن يواصل التقدم وهو يشدُّ قبضته على السِّكين.

مبتسمًا، أدار جورج باكهاوز السلاح نحو نفسه. تردَّد كما لو أنَّه يريد أن يقول شيئًا، لكنه سرعان ما قدح الزناد بعد ذلك، وسقط دونما صوت.

لدى مغادرته المكان ذهب ماكس مباشرة إلى الشرطة ونُقل إلى المستشفى لكن ما أن خرج من المستشفى حتى تمَّ توقيفه ومحاكمته لاحقًا، لدى سؤاله إذا كان قد قتل جورج باكهاوز أجاب مؤكدًا. لماذا فعل ذلك؟ أجاب باعترافه الموجز: بسبب دين.

بالنَّظر إلى أنه انجرح وأيضًا بسبب حسن سلوكه الذي كان مؤكدًا بشهادة الشُّهود، حكم عليه القاضي بالحبس مدَّة ستٍّ سنوات، على الرغم من احتجاجات المدعي العام، وهو محب للكلاب كان مثارًا لموت الكلب الدِّلماسي بشكل خاص (حضرتك يجب أن تأخذ بعين الاعتبار النيَّة الجرمية لفرد يقتل بدم بارد كلبًا مسكينًا كان يقوم فقط بواجبه).

اقتيد ماكس إلى سجن في بورتو آليغري. كسجين نموذجي أمضى مدته يقرأ ويعمل في بستان السِّجن:

لم يتشاجر مع أحد قطّ ولم يتورط في مشكلة. على خلفية سلوكه الجيد أطلق سراحه بشكل مشروط قبل انقضاء مدة حكمه. وعندما أخلي سبيله عاد إلى المزرعة حيث كان كل شيء يجري بسلاسة أثناء غيابه. ومنذ ذلك الحين عاش ماكس حياة هادئة. ربطته علاقات جيِّدة مع الجميع لكنه رفض التحدث عن ماضيه، جزئيًا لأنه نسي بالفعل ما الذي حصل له، تمامًا مثل هيلدا التي لم تكن قادرة على تذكر ما حدث لها يوم عُثر عليها منهارة في الغابة. ربما لهذا السبب كانت شابة عصبية المزاج، مع ذلك تخرَّجت

من دار المعلمين، تزوَّجت مهندسًا، وأنجبت أربعة أطفال كانوا مصدر فرح العجوز جاسي.

كرس ماكس نفسه في السنوات الأخيرة من حياته لتربية القطط؛ قطط من نوع انغورا أصيلة من سلالة خاصة (انغورا البرازيلية) فازت بعدَّة جوائز في استعراضات القطط. كانت هذه الحيوانات سهلة القياد، وذات حساسية استثنائية، تخرخر بصوت خفيض عندما يغني لها ماكس التهويدات، وكانت تميل إلى الأطفال بشكل خاص.

توفي ماكس شميت عام 1977. كان يقول في أيَّامه الأخيرة: أنا في سلامٍ مع سنانيري، لكن لم يعرف أحد بالضبط ما كان يقصد. لكنه كان كذلك وحسب: كان ماكس أخيرًا، في سلامٍ مع سنانيره.

مواسير سكلير

ماكس والقطط

«ماكس والقطط» التي تقدم لأول مرة بالعربية، حازت الشهرة مرتين؛ الأولى عام 1981 عقب صدورها مباشرة إذ حظيت برضى النقاد، وفي عام 2002 عندما فاز الكاتب الكندي يان مارتل بجائزة Man Booker عن رواية «حياة باي» حيث اتهم بانتحال فكرة رواية سكلير. وأدى اعتراف مارتل بأنه اقترض الفكرة إلى نقاش حاد بين الكتاب والنقاد حول طبيعة الاختراع الأدبي وأطر حقوق الملكية الأدبية.

قال سكلير لصحيفة «نيويورك تايمز»: «بطريقة ما أشعر بالإطراء أن كاتباً زميلاً يعتبر فكرتي جيدة جدا، ولكن من ناحية أخرى، فقد استخدم هذه الفكرة دون استشارتي أو حتى إخطاري». «الفكرة هي ابنة صاحبها!». كما أعلن سكلير أنه لا يفكر بمقاضاة مارتل، الذي أضاف شكراً لسكلير في الطبعات اللاحقة لروايته عقب تردد.

يعدّ مواسير سكلير من أشهر القاصين والرواة البرازيليين. ولد عام 1937 في بورتو آليغري وتوفي عام 2011 . وقد قامت الدار ، بالإضافة إلى هذا العمل، بترجمة رواية «المتطوعون» لذات الكاتب.

ISBN 978-99966-1-796-6

تمت الطباعة في شركة مطابع بلومز

BLOOMS

دار الخان للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة

Info@daralkhan.com

@DarAlkhan_kw